ثلاث حكايات

تأليف: جوستاف فلوبير
ترجمة: حسام أبو سعدة

قلب بسيط

(١)

ظل البورجوازيون من سكان «بون إيفاك» يحسدون السيدة «أوبان» لمدة نصف قرن، على خادمتها «فيلسيتى».

هذه الخادمة تحصل على مائة فرنك فى العام و مقابل ذلك تطبخ ، تنظف، تخيط الملابس و تغسلها و تكويها، ترعى الحصان، تربى الطيور و تصنع الزبد، وفية جدًا لسيدتها رغم أنها ليست شخصية لطيفة.

كانت السيدة «أوبان» قد تزوجت من شاب فقير ثم توفى بداية عام ١٨٠٩ بعد أن ترك لها طفلين صغيرين و بعض الديون. باعت أملاكها و لم تترك إلا مزرعة فى «توك» و أخرى فى «جيفوس» يجلبان لها دخل لا يزيد عن خمسة آلاف فرنك. تركت منزلها الضخم فى «سان ميلان» لتسكن منزل أصغر كان ملكًا لأجدادها يقع خلف «هال».

المنزل مكسو بالحجر الإردوازى، يقع بين ممر و شارع صغير يقود إلى الشاطئ. يتكون من عدة مستويات لدرجة أن يتعثر الناس داخله. قاعة ضيقة تفصل المطبخ عن الصالة حيث تقضى السيدة «أوبان» يومها كله جالسة جوار الصليب على مقعد وثير من القش. فى هذه الصالة نجد منضدة من خشب السنديان

و ثمانية مقاعد من الماهوجنى بالإضافة إلى بيانو قديم عليه «بارومتر» و مجموعة من العلب الكاترون. ثم نجد تمثالين يزينان المدخنة الرخامية الصفراء على طراز «لويس الخامس عشر». ثم نجد الساعة على الحائط على شكل تلال «فستا». نشتم رائحة العفونة فى المنزل كله لأن الأرضية على مستوى أقل من الحديقة.

في الطابق الأول نجد حجرة السيدة. فسيحة جدًا، الجدران مكسوة بالورق الشاحب المزين بالزهور. نجد لوحة لزوجها يرتدى سترة أنيقة. هذه الحجرة تتصل بحجرة أصغر حيث نجد فراشين دون غطاء للطفلين.

في هذا الطابق نجد الصالون المغلق دائمًا و هو يحتوى أثاث مغطى بالعباءات. ثم ممر يقود إلى مكتب الدراسة حيث نجد الكتب محمية داخل مكتبة كبيرة من الخشب الأسود. و نجد لوحتين تعبران عن العصر القوطى و نحت لـ «أودران». إنها مجرد ذكريات عن زمن الرخاء الجميل الذى ولى. أما فى الطابق الثانى نجد حجرة صغيرة لـ «فيليستى» تطل على البرارى.

تستيقظ «فيليستى» مع أول ضوء للشمس لحضور القداس. ثم تعمل طوال النهار دون توقف. و بعد الانتهاء من العشاء يعود النظام الدقيق إلى المنزل و تغلق الباب جيدًا و تنام وهى قابضة على المسبحة.

لا أحد يستطيع مناقشتها أبدًا لكنها تترك شئون النظافة لبقية الخادمات.

علي سبيل التوفير تأكل ببطء شديد وهى تلتقط الفتات بأصابعها من فوق المنضدة. تتناول خبز خاص بها تشتريه بإثنى عشر فرنك و يكفيها لمدة عشرين يومًا.

فى كل الفصول تثبت منديل هندى على ظهرها بالدبابيس وتخفى شعرها بالقبعة. ترتدى جورب رمادى و ثوب أحمر بالإضافة إلى سترة تشبه سترة الممرضات فى المستشفيات.

وجهها نحيف. صوتها حاد. رغم أنها فى الخامسة و العشرين من العمر إلا أنها تبدو فى الأربعين. عندما تصبح فى الخمسين سنعجز عن تقدير سنها. صامتة دائمًا، تقف شامخة تتبع حركات دقيقة محسوبة. تبدو كأنها مصنوعة من الخشب و تعمل بطريقة آلية.

●●●

(٢)

لديها قصة حب مثل الآخرين.

كان والدها عامل بناء توفى بسقوطه من فوق السقالة. ثم توفيت والدتها و تناثرت أخواتها. عملت حارسة للأبقار فى مزرعة. كانت ترتجف وهى ترتدى الثياب الممزقة، تشرب من البركة، يضربونها دون سبب. و فى النهاية اتُهمت بالسرقة ظلمًا وعدوانًا و طردوها. ذهبت للعمل خادمة فناء فى مزرعة أخرى. ولأنها أعجبت صاحب المزرعة أصبح زميلاتها يغرن منها.

فى ذات يوم من شهر أغسطس (كانت فى الثامنة عشرة من العمر) قادوها إلى حفل فى «كولوفيل». درات رأسها من الضجيج. الشمس ساطعة على الأشجار. رأت كتل من الناس تتقافز فى نفس الوقت. وقفت منعزلة فى ركن حتى ظهر شاب أنيق يدخن غليونه، تقدم يدعوها للرقص. اشترى لها عصير التفاح، قهوة، الحلويات و منديل. اعتقد أنها ستمنحه نفسها مقابل ذلك. فى طرف حقل الذرة بطحها أرضًا فصرخت و جرت.

فى ليلة أخرى، على الطريق «بومون»، كانت تريد تجاوز عربة كبيرة محملة بالتبن تسير ببطء. فى هذه اللحظة عرفت «ثيودور». لقد احتكت بالعجلات و اعتذر لها بهدوء و هو يقول: هذا الخطأ بسبب الشراب.

لـم تجـد كلمـات تقولهـا. كانـت ترغـب فـى الفـرار لكنـه راح يحدثهـا عـن الحصـاد و مشـاكل الزراعـة. والـده ذهـب إلـى مزرعـة «إيكو» و تركه هنـا لإدارة مرزعـة «كولفيـل». هكذا أصبحنـا جيـران. ثـم أضـاف أنهـم يبحثون فـى أمـر زواجـه و هـو يبحـث عمـن تشـاركه حياتـه. ثـم سـألها إن كانـت تفكـر في الـزواج. فطلبـت منـه ألا يسـخر منهـا فقـال:

– أقسم لك لا أسخر منك.

لـف ذراعـه الأيسـر حـول خصرهـا و سـارت جـواره. تباطـأت خطواتهمـا بينمـا كانـت الخيـول الأربعـة تجـر العربـة الضخمـة وتثيـر الأتربـة حولهمـا. ثـم درات الخيـول إلـى اليسـار دون تلقـى الأمـر بذلـك. قبلهـا فجـرت فـى الظـلام.

كان «ثيـودور» قـد إتفـق معهـا علـى اللقـاء فـى الأسـبوع التالـى. التقيـا فـى آخـر الحقـول، خلـف الجـدار، تحـت شـجرة معزولـة. لـم تكـن سـاذجة هـذه المـرة، لقـد تعلمـت الـدرس ممـا حـدث مـن قبـل. لكنهـا رغـم ذلـك تخشـى الفشـل. هـذه المقاومـة الخفيفـة مـن ناحيتهـا أثـارت «ثيـودور» فعـرض عليهـا الـزواج. في البدايـة تشـككت فى موقفه لكنـه أكـد لهـا إصـراره علـى الـزواج بهـا. كان يجـب أن يرسـل شـخصًا للحصـول علـى موافقـة والديـه.

احترمت موقفه. هذا ليس جبنًا بل تقدير لوالديه. لكن بدأت مخاوفها تنمو. ثم أخبرها أنه يجب أن يسافر بنفسه لمناقشة والديه و سيعود يوم الأحد القادم بين الحادية عشرة و منتصف الليل.

فى الموعد المحدد جرت إلى المكان المتفق عليه لكنها وجدت أحد أصدقائه بدلاً منه. أخبرها أنها لن تراه أبدًا بعد اليوم. «ثيودور» تزوج من فتاة مشهورة ثرية جدًا، «ليهوسيه دى توك».

كانت الصدمة عنيفة. راحت تتجول طوال الليل فى الحقول و هى تبكى. ثم عادت إلى القرية و أعلنت رغبتها فى الرحيل. حصلت على مستحقاتها خلال شهر. حملت كل أمتعتها فى لفافة وعادت إلى «بون إيفاك» تبحث عن عمل. قادوها إلى السيدة «أوبان» التي وافقت عليها رغم عدم إجادتها للأعمال المنزلية لأنها لاحظت صبرها و جلدها.

فى البداية كانت حياتها مضطربة هنا بسبب طبيعة المنزل. من ناحية ذكريات صاحبة المنزل و من ناحية أخرى يبدو لها أن «بول» الذى فى السادسة من العمر و «فرجينيا» التى فى الرابعة مخلوقان من مادة دقيقة. تحملهما على ظهرها مثل الحصان لكن السيدة «أوبان» تمنعها من تقبيلهما طوال الوقت، و هذا يزعجها. مع ذلك تشعر بالسعادة، تشعر بدفء الأسرة فى هذا المنزل رغم كل أحزانها.

كل يوم خميس يأتى الجيران لإقامة حفل بسيط. تستعد لهم من قبل حضورهم، تعد أوراق اللعب و المشروبات الساخنة. يأتون فى تمام الساعة الثامنة و يرحلون قبل الحادية عشرة مساءً.

كل يوم إثنين يأتى تاجر الخردة الذى يشغل الممر بقطع الحديد. ثم تنتشر الضوضاء فى المدينة حيث يمتزج صهيل الخيول مع ثغاء الخراف مع خواء الخنازير مع الضجة الحادة للعربات فى الشوارع.

فى الظهيرة، عندما تصبح الضجة شديدة، يظهر على عتبة السلم قروى عجوز طويل، يدفع بقبعته خلف رأسه فيبدو أنفه مدببًا. إنه «رويلان» المسئول عن إدارة مزرعة «جينوس». و بعد ذلك بفترة قصيرة نجد «ليبار» المسئول عن إدارة مزرعة «توك». إنه شاب أحمر، بدين، يرتدى سترة رمادية و يلف حول ساقه بعض الأسلحة.

الاثنان يقدمان الدجاج و الأجبان لصاحبة الأملاك بينما «فيليستى» تكتشف خبثهم و مكرهم حتى أصبحا يخشيانها.

تستقبل السيدة «أوبان»، علي فترات غير محددة، ماركيز «جرمانفيل». إنه أحد أقاربها. وغد حقير يعيش فى «فالاز» على آخر قطعة أرض متبقية من أملاكه. يأتى دائماً وقت الغداء بصحبة كلبه المخيف الذى يلطخ كل أثاث المنزل بأقدامه. يجاهد

الماركيز كثيرًا ليبدو مهذبًا، يرفع قبعته فى كل مرة يطلب خمرًا و فى النهاية تقوده «فيليستى» إلى الباب و هى تقول بأدب:

- لديك كثيرًا سيدى.

تغلق الباب بغلظة ثم تفتحه مبتهجة أمام السيد «بورى»، رباط عنقه أبيض و كذلك صلعته. أسلوبه فى التفاهم و الحوار واحتواء من أمامه، كل هذا يجعله من الأشخاص الخارقين.

لأنه يرعى أملاك السيدة ينفرد بها فى حجرة مغلقة لمدة ساعات طويلة. يحاول تسوية الأمور بشكل لائق لأنه يحترم القضاء.

من أجل تعليم الصغار تقدم الأم لهم صورًا ملونة جميلة تمثل مشاهد مختلفة من العالم مثل آكلى لحوم البشر يتزينون بالرياش أو قرود تقفز فى أمان أو بدوى فى الصحراء أو حوت ضخم وغير ذلك. ثم يجلس «بول» يفسر هذه الصور لـ «فيليستى» و هى لا تعلم شيئًا إلا هذه المعلومات فقط.

أما تعليم الأطفال فهو على يد «جيو»، شاب موظف صغير فى المحافظة معروف بنزاهة اليد.

عندما يكون الجو صحوًا يذهبون لقضاء ساعات طويلة فى مرزعة «جيفوس». هناك الفناء ينحدر يتوسطه المنزل بينما البحر يبدو من بعيد مثل بقعة رمادية.

تسحب «فيلسيتى» قطع اللحم البارد من الكيس و يتناولون الغداء فى دار بائع الألبان. إنه المتبقى الوحيد من كل سكان المنطقة الذين رحلوا من قبل. فى هذه الدار نجد ورق الجدران باليًا من تيارات الهواء و تجلس السيدة «أوبان» تتجرع الذكريات بينما الطفلان صامتان. تقول الأم: اذهبا للعب.

«بول» يصعد فوق الإسطبل لاصطياد العصافير أو يضرب المقعد الوثير بعصا ضخمة. أما «فرجينيا» تطعم الأرانب أو تذهب لجمع ثمار التوت ثم تندفع فى الجرى بحماس حتى تظهر ثيابها الداخلية.

فى ذات ليلة من ليال الخريف، أثناء العودة من الحقول، القمر بدرًا بينما الضباب يسبح من فوق الحقول. كانت الأبقار ترتع وسط الأشجار و هى ترقب مرور هؤلاء الأربعة. اتجهت بعض الأبقار إليهم فقالت «فيلسيتي»: لا تخافوا!

ثم راحت تمسح على ظهر البقرة القريبة منها فاقتربت بقية الأبقار. ثم حدثت ضجة كبيرة. كان هناك قطيع ضخم يختفى فى الضباب يتجه نحوهم. جرت السيدة «أوبان» و هى تقول: هيا بسرعة.

شعرت بأنفاس الأبقار خلفها و هى تدب بكل ثقلها على الأعشاب. جرت «فيلسيتي» تلتقط حفنة من التراب و ألقتها فى عين الثور الذى ارتجف فى ذعر بينما كانت السيدة «أوبان» تجرى مع صغيريها فاقدة صوابها. كيف تواجه الثور و هى تتراجع و تصرخ:

– هيا، أسرعوا.. أسرعوا..

هبطت السيدة «أوبان» فى خندق صغير بعد أن دفعت «فرجينيا» و «بول» و تحاول تشجيعهما.

كاد الثور الجامح أن يفتك بـ «فيلسيتى» لولا أنها احتمت فى مكان ضيق فوقف الثور مذهولاً.

ظلت تفاصيل الحادثة تتردد فى «بون إيفاك» لعدة سنوات بينما «فيلسيتى» لا تشعر بالفخر و لا تشعر بأنها قامت بأى عمل بطولى.

هذه الواقعة أصابت «فرجينيا» بصدمة نفسية نتيجة الذعر الشديد و نصحهم الطبيب بالاستحمام في بحر «تورفيل».

بما أنهم لا يختلطون بالناس كثيرًا طلبت السيدة «أوبان» من «بورى» أن يعد العدة لرحلة طويلة.

رحلوا مساءً فى عربة «ليبار». صعدت السيدة «أوبان» خلف «ليبار» بينما «فيلسيتى» كانت مسئولة عن رعاية «فرجينيا» أما «بول» فوق حمار صغير محاط بكل الرعاية.

الطريق وعر جدًا حتى أنهم قطعوا ثمانية كيلومترات خلال ساعتين. الأحصنة تترنح بعنف حتى كادت تسقط ركابها أكثر من مرة. فى بعض الأحيان تضطر الأحصنة للقفز. فرس «ليبار»

تتوقف من حين لآخر فيضطرون إلى التوقف لاستطلاع الطريق. يحدثهم «ليبار» عن أحوال المسافرين و معاناتهم. فى وسط «توك» مروا تحت نوافذ محاطة بالخناجر فقال و هو يهز أكتافه:

– هذه إحداهن، السيدة «ليهوسي»، بدلاً من الزواج...

لم تسمع «فيلسيتى» بقية حواره. لقد بدأت الأحصنة تجرى فى طريق ضيق ثم توقفت فوق السماد أمام عتبة الباب.

أبدت والدة «ليبار» كل البهجة عندما رأت سيدتها. على الفور قدمت لهم وجبة الغداء المكونة من اللحم و السجق، الحلويات، قطع الدجاج وعصير التفاح بالإضافة إلى فطيرة فاخرة معجونة بالخمر. وقفت تخدمهم بكل احترام و تقدير، تمتدح أخلاقهم ومحاسنهم، و بالطبع لم تنس مدح أجدادهم. لقد كانت كل أفراد أسرة «ليبار» تتفانى فى العمل و خدمتهم دائمًا.

الدار قديمة مثل هيأتهم. عروق الخشب مُسوسّة فى السقف، الجدران داكنة من الدخان، البلاطات رمادية من الأتربة. فى الخزانة الصغيرة نجد كل أدوات المطبخ، الأباريق و الأطباق بالإضافة إلى فخاخ الثعالب و أدوات جز صوف الخراف و محقنة ضخمة أضحكت الطفلين. فى الأفنية الثلاثة لا نجد أية شجرة ولا عش الغراب و لا أعشاب برية و لذلك يرتع الهواء بحرية. لا يأكلون إلا البطاطس، أسقف الزريبة تبدو واهية ترتجف مع أية

نسمة هواء. المزرعة كلها تبدو مثل أطلال خربة. قالت السيدة «أوبان» أنها تشعر بمعاناتهم و أمرت بالاهتمام بالحيوانات.

وصلوا «تورفيل» بعد نصف ساعة. اضطروا إلى الارتجال للمرور فى جرف ضيق يطل على السفن ثم وصلوا إلى الشاطئ بعد ثلاث دقائق و أصبحوا عند والدة «ديفيو».

بدأ مرض «فرجينيا» يزداد فى الأيام الأولى. اعتقدوا أن هذا ناتج عن تغيير الجو و الاستحمام فى البحر. عاونتها خادمتها على تبديل ثيابها فى غرفة مخصصة لخدمة المصطافين.

فى الأمسيات يذهبون للتجول حتى الصخور السوداء. هناك يصعد الممر بين التلال ثم تمتد المراعي و الحقول المحروثة. على حافة الطريق، وسط فوضى النباتات البرية، و فى أماكن متفرقة نجد الأشجار الضخمة الميتة.

يستلقون للاستراحة، غالبًا، فى المروج. على يسارهم منطقة «دوفيل» و عن يمينهم منطقة «هافر» أما البحر فى مواجهتهم. الشمس تتلألأ فوق البحر الهادئ الأملس مثل المرآة. الهدوء التام لا يخدشه إلا حثاء بعض الخراف المختفية خلف الأعشاب. تجلس السيدة «أوبان» تنهمك فى الخياطة و تجلس «فرجينيا» جوارها تجدل النباتات البرية. أما «فيلسيتى» تقطف أزهار اللافندر. «بول» يضيق من المكان و يرغب في الرحيل.

فـى بعـض الأحيـان يتجولـون بحثًـا عـن القواقـع. الميـاه الضحلـة تسـمح لهـم بالعثـور علـى القنافـذ و القناديـل . ثـم يجـرى الطفـلان هربًـا مـن رذاذ الأمـواج. الميـاه هنـا ضحلـة جـدًا بطـول الشـاطئ. تمتـد إلـى مـا لا نهايـة. لكـن مـن ناحيـة الأرض نجـد الكثبـان الرمليـة فـى شـكل مضمـار. مـن هنـا تبـدو «توفيـل» فـى نهايـة الأرض الصاعـدة تكبـر و تنمـو بمنازلهـا الغيـر متسـاوية فتبـدو البلـدة غارقـة فـى البهجـة.

فـى الأيـام السـاخنة لا يخرجـون مـن حجراتهـم. أشـعة الشـمس تتسـلل مـن النوافـذ و لا نسـمع أيـة ضجـة فـى القريـة و لا نجـد أى شـخص فـى الشـوارع. الصمـت يغلـف الكـون كلـه. فـى البعيـد نسـمع مطـارق العمـال علـى هيـاكل السـفن و نشـتم رائحـة القـار.

المتعـة الكبيـرة تكـون مـع عـودة السـفن. مـا أن تقتـرب مـن الشـاطئ حتـى يُنزلـوا الأشـرعة إلـى ثلـث الصـارى فتنتفـخ مثـل الكـرة. تنزلـق السـفن بيـن الموجـات الخفيفـة حتـى تصـل إلـى وسـط الميناء و يلقـون بالهلـب. ثـم يلقـى البحـارة بالشـباك التـى تحتـوى الأسـماك المرتجفـة. تكـون العربـات فـى انتظارهـم و يسـتقبل النسـاء أزواجهـن بالأحضـان و البهجـة.

إحداهـن كانـت تداعـب «فيلسـيتى» مبتهجـة. إنهـا «ناسـتازيا باريـت». تسـتقبل زوجهـا الآن حاملـة رضيعًـا علـى صدرهـا و تقبـض باليـد اليمنـى علـى طفـل آخـر. ظلـت السـيدة «أوبـان» تتأملهـا لمـدة ربـع سـاعة. كانـت تـرى هـذه السـيدة حـول المطبـخ أو أثنـاء التجـول لكنهـا لـم تـر زوجهـا أبـدًا.

كانت «فيلسيتى» تشفق على هذه السيدة. اشترت لها الأغطية و القمصان و موقد. لكن السيدة «أوبان» تغضب من ذلك، تعتقد إنه الاستغلال. إنها لا تحب مثل هذه العلاقات و لا تحب أن يتبسط الناس فى التعامل مع أولادها. و لأن «فرجينيا» مازالت تسعل و الجو ليس مناسبًا عادت إلى «بون إيفاك».

هناك اقترح السيد «بوران» عدة مدارس، أفضلهم مدرسة «كان». يجب أن نرسل «بول» إلى هناك و سعد الطفل بذلك لأنه يحلم بالحياة وسط أصدقاء مثله.

انزعجت السيدة «أوبان» من ابتعاد ابنها لأنها تعلم انطوائه. أما «فرجينيا» بدأت تعتاد الأمر يومًا وراء يوم. بينما «فيلسيتى» ندمت لابتعاد الصغير لكنها بدأت تشغل نفسها بأمور أخرى. منذ الاحتفال بعيد الميلاد المجيد بدأت فى اصطحاب «فرجينيا» إلى الكنيسة لتلقى العلوم الشفاهية.

●●●

(٣)

بعد أن رسمت الصليب على صدرها تقدمت إلى القاعة وسط طابوران من المقاعد. فتحت مقعدًا للسيدة «أوبان» و جلست جوارها تتأمل المكان.

الأولاد فى جهة اليمين و الفتيات فى جهة اليسار. الكاهن يقف جوار المقرأة و كانت هناك لوحة من الزجاج الملون تمثل العذراء و لوحة أخرى تمثل المسيح صغيرًا جاثيًا على ركبتيه، و خلف الخيمة نجد مجموعة تماثيل من الخشب تمثل القديس «ميشال» يصارع التنين.

بدأ القس يقدم ملخص التاريخ المقدس و شردت «فيلسيتى» بخيالها حتي رأت الجنة، الفيضان، أبراج بابل، المدن المحترقة، والشعوب الميتة و الأصنام المقلوبة. ارتجف قلبها فى رهبة خوفًا من غضب الرب ثم بكت و هى تسمع الابتهالات. لماذا صلبوه؟ كان يحب الأطفال، يطعم الناس و يشفى الضرير. كان يرغب في العيش بأمان وسط الفقراء. لماذا صلبوه؟ كان يُبذر الحبوب و يحصد وينصح. تشعر بوجود كل هذه الأشياء التى تحدث عنها الإنجيل فى حياتها الخاصة. الرب يعيش داخلها. إنها تحب الخراف الصغيرة لمجرد الحب فقط، تحب الحمام لروحه الطاهرة.

لا تشعر في قرار نفسها أنها مثل الطائر بل روح مجردة. ربما يكون الضوء الذى يبدد الظلام فى المستقعات، أو أنفاسه التى تدفع السحب الكثيفة، أو صوته الذى يجعل الأجراس تترنم و هى تظل فى عباداتها تستمتع بالهواء الطازج و سكون الكنيسة.

أما بالنسبة للعقائد لا تفهم شيئًا و لا تحاول الفهم. الكاهن يقرأ و الأطفال تردد مثله و فى النهاية غفلت عينيها ثم استيقظت فجأة عندما سمعت وقع الخطوات.

هكذا تعلمت مع الصغيرة كل طقوس الصلاة التى كانت تجهلها. بدأت فى تقليد «فرجينيا» فى كل حركاتها ثم اعترفت معها.

ارتجفت فى الاجتماع الأول. ارتجفت من الحذاء و المسبحة و الكتاب و القفازات. و راحت «فرجينيا» و والدتها يعاوناها فى ارتداء الثياب المخصصة.

أثناء القداس شعرت بالقلق . كان السيد «بورى» يقف أمامها فيخفى عنها جزءًا من المذبح لكنها رأت مجموعة من العذارى يحملن التيجان البيضاء فوق الحجاب فبدين مثل حقل من السحب البيضاء و لمحت بينهن الصغيرة الحبيبة. دقت الأجراس وانحنت الرءوس و هبط الصمت وبدأ الأورغون فى عزف الترانيم المقدسة. ثم بدأ استعراض الفتيان يليهم استعراض الفتيات يتامسكون بالأيدى و يتقدمون نحو المذبح المتلألىء بالأضواء. ركعوا

عند أول عتبة لاستقبال التبريكات و إقامة الصلاة بالتتابع. عندما أتى الدور على «فرجينيا» هبت «فيلسيتى» واقفة لمتابعتها فى لهفة و حب جارف. شعرت أنها هى نفسها هذه الطفلة، الوجه هو وجهها و الملابس هى ملابسها. خفق قلبها بشدة. فتحت فمها وهى تغلق عينيها و سقطت مغشيًا عليها.

في اليوم التالى ذهبت باكرًا إلى الغرفة المقدسة لتناول القربان الذى أكلته بإيمان عميق لكنها لم تشعر بحلاوته.

السيدة «أوبان» ترغب فى أن تكون ابنتها كاملة فى كل شىء. «جيو» لن يستطيع تعليمها اللغة الإنجليزية و لا الموسيقى. لذلك قررت أن تدفع بها إلى مدرسة داخلية فى «هونفلور». لم تعترض الصغيرة لكن «فيلسيتى» أصبحت تعتقد فى قسوة قلب سيدتها. ثم بدأت تقتنع بهذا الأسلوب فى التربية. هذه الأمور أكبر من مداركها.

في النهاية أتت عربة قديمة لأخذ الصغيرة. حملت «فيلسيتى» الأشياء و هى تسأل عن كل التفاصيل. حملت ست علب من المربي و اثني عشر كمثرى و باقة ورد.

شعرت «فرجينا» بالخوف فى آخر لحظة. ثم قبلت والدتها التى قالت:

- هيا! تشجعى، تشجعى!

رحلت العربة حاملة الصغيرة و متاعها.

بدأت السيدة «أوبان» تشعر بالفراغ. فى كل يوم يأتى لزيارتها الأصدقاء، مدير المنزل «لورمو»، السيد «لوشابتوا»، الآنسات «روشفاى»، السيد «دى هوبفيل» و «بورى». يأتون لمعاونتها على تحمل آلام البعد.

كانت السيدة تتألم كثيرًا لفراق ابنتها. تكتب لها ثلاث مرات فى الأسبوع ثم تذهب للتجول فى حديقتها أو تقرأ قليلاً. بهذا الأسلوب تشغل فراغها.

فى الصباح، حسب العادة، تدخل «فيلسيتى» حجرة «فرجينا» و تتأمل الجدران. تتحسر وهى تذكر عندما كانت تمشط شعرها وتعاونها على ارتداء الحذاء و تداعبها فى الفراش. تتحسر لأنها لم تعد تسعد بوجهها الجميل و لم تعد تمسك بيدها عندما يخرجان للتجول. حاولت تصنيع الدانتيل و هى تتجرع الآلام لكن الإبر تتحطم بين أصابعها الثقيلة. أصبحت لا تسمع شيئًا و تعجز عن النوم. أصبحت محطمة.

فى محاولة منها للخروج من هذا الموقف المؤلم طلبت السماح لها بزيارة ابن أختها «فيكتور».

كان قد وصل يوم الأحد بعد القداس. متورد الوجه، كاشف صدره، نشتم منه رائحة الحقول التى أتى منها. رتبت له الفراش

على الفور ثم جلسا يتناولان الطعام و هى تحاول أكل أقل كمية من الطعام على سبيل التوفير بينما تحشر الطعام فى فمه إلى أن غط فى النوم. أيقظته مع صلاة المساء. نظفت ملابسه و ذهبت به إلى الكنيسة و هى تتأبط ذراعه و تشعر بالفخر الذى تشعر به كل أم بابنها.

والداه يحملانه مسئولية أشياء كثيرة، يطلبان منه السكر والصابون و الخمور و أحيانًا المال. طلب منها ترقيع ثيابه فوافقت سعيدة لأن هذا سيجبره على العودة.

فى شهر أغسطس أرسله والده للملاحة. حدث هذا فى وقت الإجازات و كانت مشغولة بالطفلين. لكن «بول» أصبح متقلب المزاج بينما وصلت «فيرجينا» إلى مرحلة من العمر بحيث لا تستطع التبسط معها فى الحديث. هكذا شعرت بالحاجز يحجبها عن الطفلين.

ذهب «فيكتور» إلى «مورلى» ثم «دونكرك» ثم «بريطانيا». مع عودته من كل رحلة يقدم لها هدية. أول مرة قدم لها علبة من الأصداف و فى المرة الثانية فنجان قهوة و فى الثالثة خبز الجنزبيل. ثم أصبح يتأنق فى ملبسه و يزهو بشاربه الصغير وعينيه الفرنسية و قبعة صغيرة من الجلد يلقى بها خلف رأسه مثل كل البحارة. يمزح معها و هو يقص عليها مغامراته البحرية.

فـى يـوم الإثنـين ١٤ يوليـو ١٨١٩ (تذكـر هـذا التاريـخ جيـدًا) أخبرهـا بأنـه سـيخرج إلـى رحلـة طويلـة قـد تصـل إلـى عامـين.

لكـى تودعـه خرجـت بعـد خدمـة العشـاء تقطـع أربعـة فراسـخ بين «بـون ايفـاك» و «هونفلـور». عندمـا أصبحـت داخـل المينـاء اتجهـت إلى اليسـار بـدلاً مـن اليمـين. تاهـت. دارت حـول المينـاء المليئـة بالسـفن وبـدأت الأرض تنخفـض و الأضـواء تتداخـل. فقـدت صوابهـا و هـى تلمـح الأبـواب تغلـق فـى الأفـق.

كان هنـاك آخـرون علـى الرصيـف يرتجفـون مـن البحـر. العمـال يحملـون السـفينة بالمسـافرين و براميـل عصيـر التفـاح و صناديـق الجـبن و أجولـة الحبـوب. العمـال يغنـون و القبطـان يراجـع كل شـىء بينمـا كان هنـاك بحـار صغيـر حـول الصـارى. صرخـت «فيلسـيتى»: «فيكتـور». رفـع البحـار رأسـه. إنـه هـو. كادت أن تقفـز إليـه لكنهـم رفعـوا السـلالم فجـأة.

بـدأت السـفينة فـى الخـروج مـن المينـاء تتخبـط بـين الأمـواج. لف الشـراع و أصبحنـا لا نـرى أحـدًا فـى السـفينة. كان البحـر مرتفعًـا بتأثيـر المـد و اختفـت السـفينة فـى البحـر المترامـى.

وقفـت طويـلاً تصلـى باكيـة و هـى ترقـب حركـة السـفن بينمـا موظفـو الجمـارك يتجولـون فـى نشـاط و الميـاه تتسـاقط دون انقطـاع علـى السـلاسـل الحديديـة بصـوت يشـبه الرعـد. دقـت السـاعة تشـير إلـى الثانيـة صباحًـا.

لـن تُفتـح أبـواب المينـاء قبـل الصبـاح. هـذا التأخيـر سـيغضب السـيدة بالتأكيـد. لكنهـا نجحـت فـى الوصـول إلـى «بـون ايفـاك» فـى الموعـد المناسـب و هـى تفكـر فـى مصيـر ابـن أختهـا المسـكين. سـيظل عالقًـا فـى البحـر لمـدة شـهور طويلـة. رحلاتـه السـابقة لـم تكن خطيـرة. مـن السـهل العـودة مـن بريطانيـا لكـن أمريـكا، الجبـال، الجـزر، إنهـا أماكـن خطيـرة فـى نهايـة العالـم.

هكذا أصبحـت «فيلسـيتى» تفكـر فـى ابـن أختهـا فـى كل لحظـة. إذا كان الجـو صحـوًا تخشـى عليـه مـن الظمـأ و عندمـا تهـب العاصفـة تخشـى عليـه مـن النـوة، عندمـا تسـمع الهـواء داخـل المدخنـة تتخيلـه وهـو يصـارع العاصفـة واقفًـا فـوق الشـراع و يطـوح بـكل جسـده فـى الهـواء. ثـم تتذكـر بعـض معلوماتهـا البسـيطة فتخشـى عليـه مـن الوحـوش أو المـوت فـى الشـواطئ الصحراويـة الخاليـة. لكنهـا لا تفصـح عـن مخاوفهـا أبـدًا.

كانـت السـيدة «أوبـان» تعانـى نفـس المخـاوف علـى ابنتهـا . الراهبـات يعتقـدن أنهـا عاطفيـة حالمـة. تتأثـر بـأى شـىء مهمـا كان بسـيطًا و لذلـك يجـب الابتعـاد عـن البيانـو.

كانـت الأم تعتـاد إسـتقبال الرسـائل بشـكل منتظـم. ثـم انقطعـت الرسـائل و بـدأ القلـق. راحـت تتجـول بـين المقعـد و النافـذة فـى اضطـراب. الأمـر غيـر طبيعـى. لـم تتلـق أيـة أخبـار منـذ أربعـة أيـام.

قالت «فيلسيتى» محاولة مواستها:

- سيدتى، أنا لم أتلق أية أخبار منذ ستة أشهر.

- ممن؟

قالت الخادمة:

- من ابن أختى.

- آه ابن أختك!

هزت السيدة «أوبان» أكتافها و عادت تتجول فى حجرتها كأنما تقول: أمورك لا تشغلنى فى شىء.

ثم سخرت قائلة: إنه مجرد بحار، متسول.. بينما ابنتى.. ألا تعلمين قدرها؟..

غضبت «فيلسيتى» رغم أنها اعتادت القسوة من السيدة. ثم نسيت الموضوع بعد ذلك. التمست لها العذر. يجب نسيان كل شىء من أجل الصغيرة. الطفلان لهما نفس القدر من الأهمية والحب بالنسبة لها.

ثم علمت بعد ذلك من الصيدلى أن سفينة «فيكتور» وصلت إلى «هافانا». لقد قرأ الخبر فى الجرائد.

بسبب شهرة «هافانا» بالسيجار تعتقد أنهم لا يفعلون شيئًا سوى التدخين بينما «فيكتور» يعيش بين البربر وسط سحابة

من الدخان. هل يستطيع ابن أختها العودة إلى الوطن؟ ما هى المسافة بين «هافانا» و «بون ايفاك»؟

سألت السيد «بورى» فى هذا الموضوع. أتى الرجل بالأطلس وبدأ يشرح لها خطوط الطول و العرض. ابتسم عندما رأى دهشتها ثم حدد لها المكان على الخريطة.

انحنت تتابع بدقة. الخطوط المتشابكة ترهق عينيها دون أن تفهم شيئًا و راح «بورى» يجيب على كل أسئلتها ثم طلبت منه أن يشير لها إلى مسكن «فيكتور». ضحك «بورى» بشدة من سذاجتها وهى لا تعلم سبب ضحكاته. إنها ترغب فى رؤية ملامح وجه «فيكتور».

بعد خمسة عشر يومًا أتى «ليبار» كعادته فى موعد السوق. دخل المطبخ و قدم لها رسالة أتت إليه من أخيه. و لأن الاثنان لا يجيدان القراءة جرت إلى سيدتها.

السيدة «أوبان» التى كانت منهمكة فى الخياطة وضعت الرسالة جانبًا بعد أن قرأتها ثم قالت بصوت منخفض و نظرات شاردة:

– من المؤسف.. أن أخبرك.. أن ابن أختك.. مات.

سقطت «فيلسيتى» على المقعد و هى تمسك برأسها و تغلق عينيها التى أصبحت حمراء. ثم طأطأت رأسها و قالت و فى عينيها نظرات ثابتة:

- شاب مسكين! شاب مسكين!

حزن «ليبار» كثيرًا لمأساتها بينما السيدة «أوبان» ارتجفت قليلاً ثم اقترحت عليها الذهاب لزيارة أختها فى «تورفيل». وأجابت «فيلسيتى» بحركة تعنى أنه لا داعى لذلك.

هبط الصمت كثيفًا. حاول «ليبار» انتزاعها من الصمت الثقيل فقالت:

- أنهما لا يهتمان بأمر ابنهما.

ثم راحت تجول ببصرها فى المكان بطريقة آلية و هى تتأمل الإبر الطويلة على المنضدة.

فى هذه اللحظة كان بعض النساء يتجولن فى الفناء حاملين ثيابهن المغسولة فتذكرت عملية الغسيل التى بدأتها بالأمس. يجب شطف الملابس الآن فخرجت من الحجرة.

كانت تقوم بعملية الغسيل على شاطئ «توك» فاتجهت إلى هناك تضرب الملابس حتى وصل صوت الضربات إلى الحدائق المجاورة.

البرارى تتمدد خاوية، الرياح تعبث بمياه النهر و فى الأفق تتمدد الأعشاب فتبدو مثل رأس طافية فوق المياه. ظلت تكتم أحزانها طوال النهار لكنها انفجرت فى البكاء طوال الليل فى حجرتها.

فيما بعد علمت من القبطان تفاصيل نهاية «فيكتور». عالجوه كثيرًا فى المستشفى من الحمى الصفراء. كان هناك أربعة أطباء حوله ثم توفى فجأة. ثم قال رئيس الأطباء:

- حسنًا، ميت جديد.

كان والداه يتعاملان معه بهمجية و لذلك لا تريد رؤيتهما الآن.

ثم أتت أخبار جديدة تضاعف البؤس. «فرجينيا» تضعف. تعانى القهر، السعال، الحمى المتواصلة. كل الأخبار تؤكد شدة آلامها. فى هذا الوقت كان الطبيب «بوبار» يقوم بزيارة للمنطقة و لذلك قررت السيدة «أوبان» إعادة ابنتها إلى المنزل فى «بون إيفاك» رغم ظروف الجو السيئة ثم اتفقت مع عربة على اصطحاب الصغيرة إلى الدير كل يوم ثلاثاء.

أصبحت «فرجينيا» تحب التجول فى الحديقة المطلة على نهر السين بين الأوراق المتساقطة. فى بعض الأحيان تكون الشمس ساطعة فتجبرها على غلق عينيها أثناء متابعة الأشرعة فى الأفق الممتد بين قصر «تنكار فيل» و فنار «هافر». ثم تجلس للاستراحة تحت الشجرة. كانت والدتها تعالجها بالنبيذ الجيد من «مالاجا» وهى تضحك لأن لونه رماديًا. الصغيرة لا تشرب إلا كمية قليلة جدًا.

رغم المعالجة صحتها تضعف شيئًا فشيئًا بينما الخريف يمر ببطء شديد و «فيلسيتى» تحاول أن تطمئن سيدتها.

و فى ذات يوم و هى عائدة من السوق رأت عربة الطبيب «بوبار» أمام الباب و هو يجلس داخلها بينما السيدة «أوبان» تعدل من قبعتها و هى تقول:

- أعطينى المعطف و القفازات بسرعة.

كانت «فرجينيا» تعانى التهاب حاد فى الرئة. تبدو الحالة ميئوس منها لكن الطبيب قال:

- ليس إلى هذا الحد.

صعد الاثنان إلى العربة تحت الجليد المضطرب. الظلام على وشك الهبوط و البرد شديد.

اتجهت «فيلسيتى» إلى الكنيسة لتشعل شمعة. ثم جرت خلف العربة و لحقت بها بعد ساعة. قفزت إلى مؤخرة العربة ثم تذكرت أنها لم تغلق باب الدار. قد يهجم اللصوص فى أية لحظة فقفزت عائدة.

مع أول شعاع ضوء اليوم التالى اتجهت إلى الطبيب لكنه خرج إلى القرى فجلست فى الفندق تنتظر رسالة قد يحملها لها شخص مجهول. فى النهاية، فى الساعات الأولى من النهار بدأت تعمل عقلها.

الديـر موجـود فـى نهايـة طريـق منحـدر. اتجهـت إليـه و فـى الطريـق سـمعت أصواتًـا غريبـة، ناقـوس المـوت. قالـت فـى نفسـها: ربمـا شـخص آخـر. ثـم جـرت بـكل طاقتهـا.

بعـد دقائـق كثيـرة ظهـر الأسـباط و فُتحـت الأبـواب و لاح الجـو الدينـى المهيـب.

جـرت إلـى الطابـق الثانـى. مـن عتمـة الحجـرة لمحـت «فرجينيـا» ملقـاة علـى ظهرهـا، مكتوفـة الأيـدى، فمهـا مفتـوح، تطـوح برأسـها إلـى الخلـف تحـت صليـب أسـود يميـل نحوهـا. الستائر السـوداء ثابتة شـاحبة. السـيدة «أوبـان» تجلـس جـوار الفـراش تحتضنـه وتبكـى بينمـا يوجـد ثـلاث شـمعدانات تشـكل بقـع حمـراء و الضبـاب يغلـف النوافـذ ورجـال الديـن يتحدثـون إلـى السـيدة «أوبـان».

ظلـت «فيليسـتى» جـوار المتوفـاة لمـدة دقيقتيـن تكـرر نفـس الصـلاة وهـى تلقـى عليهـا بالميـاه المقدسـة و تبكـى. فـى نهايـة الليلـة الأولـى لاحظـت اصفـرار وجههـا و زرقـة شـفتيها و الأنـف تضيـق و العينـان تغوصـان. قبلتهـا عـدة مـرات و هـى تتوقـع أنهـا سـتستيقظ قريبًـا بـكل بسـاطة و سـتعاونها علـى الاسـتحمام و التزيـن، سـتعاونها علـى ارتـداء ثيابهـا ثـم تمشـط شـعرها الأصفـر الطويـل. ثـم شـعرت بوخـزة عميقـة مؤلمـة فـى صدرهـا.

اتجهوا بالجسد إلى «بون إيفاك» حسب اقتراح السيدة «أوبان» التى كانت تتبع الجنازة فى عربة مغلقة.

بعد القداس وصلوا المقابر بعد ساعة إلا ربع. «بول» يسير فى المقدمة مطأطئ الرأس و السيد «بورى» يسير خلفه. النساء يرتدين المعاطف السوداء حسب العادة. تذكرت «فيلسيتى» ابن أختها وشعرت بغصة فى حلقها. لا يوجد له مقبرة خاصة به. بالتأكيد دُفن مع آخرين.

كان يأس السيدة «أوبان» بلا حدود. فى البداية ثارت ضد الرب. ترى أنه ظالم لأنه اختطف منها ابنتها التى لم ترتكب أى ذنب فى هذه الدنيا، بل تتمتع بكل النقاء و الطهارة. لكن لا.. ستلحق بها إلى العالم الآخر. حاولت الانتحار لكن الأطباء أنقذوها. الكوابيس تطاردها فتستيقظ صارخة وسط الظلام. لم تستعد هدوءها إلا عندما رأت زوجها فى الحلم يرتدى زى البحار كأنه قادم من رحلة طويلة و قال لها و هو يبكى أنه تلقى الأمر لاصطحاب «فرجينيا». وفى يوم آخر، بعد عودتها من الحديقة مضطربة رأت زوجها وابنتها داخل المنزل. لا يفعلان شيئًا لكنهما يرقبانها.

قبعت معزولة فى حجرتها لمدة شهور طويلة و «فيلسيتى» تناقشها بهدوء شديد. يجب أن تهتمى بنفسك من أجل ابنك و من أجلها. قالت السيدة «أوبان» كأنما استيقظت فجأة:

- من أجلها؟ نعم.. نعم.. أنت لم تنسيها إذًا.

إنها إشارة إلى القبر الذى منعوها من زيارته. لكن «فيلسيتى» كانت تذهب إلى هناك كل يوم. في الرابعة عصرًا تمر عبر المنازل، تصعد إلى الشاطئ حتي تصل إلى مقبرة «فرجينيا». إنها مجرد قطعة من الرخام وردية اللون مع قطعة من البلاط فى الأسفل محاطة بسور منخفض. الأرضية البيضاء تختفى تحت غطاء مزهر. «فيلسيتى» هى التي غرست هذه الزهور و تنظف الأرضية. و عندما سمحوا للسيدة «أوبان» بزيارة القبر أصبح المكان جاهزًا لتجلس هنا تتجرع آلامها.

مرت السنوات متشابهة، لا نشعر بمرور الأيام إلا خلال الأعياد الكبيرة. هناك بعض الأحداث تمثل علامات محددة. علي سبيل المثال، فى عام ١٨٢٥ تحطم زجاج نافذتين. فى عام ١٨٢٧ سقطت قطعة من السقف فى الفناء و كادت أن تقتل رجلاً. فى صيف ١٨٢٨ كان على السيدة أن تقدم الخبز المبارك. فى هذه الفترة اختفي «بورى» بشكل غامض و اختفي بقية المعارف أيضًا. اختفي «جيو»، «ليبار» و السيد «لوشابتوا» و «بولان»، أما العم الماركيز «جرمانوفيل» أصابه الشلل منذ فترة طويلة.

فى ذات ليلة أعلنوا فى «بون إيفاك» عن ثورة يوليو. و بعد بضعة أيام أتى محافظ جديد اسمه «البارون لارزومنيار»، كان

قنصلاً فى أمريكا من قبل. أتى بصحبة زوجته و ثلاث أخوات له. نلمحهن فى الإسطبل يرتدين سترات واسعة. لديهن زنجى وببغاء. قمن بزيارة السيدة «أوبان» و هى أيضًا زارتهن. لكنها رغم ذلك مشغولة برسائل ابنها.

إنه لا يقوم بأى عمل حتى الآن لأنه يعيش دائمًا فى الحانات. سددت له ديونه ثم رفضت بعد ذلك. أصبحت تنهدات السيدة «أوبان» و هى تجلس جوار النافذة تصل إلى «فيلسيتى» التى تعمل فى المطبخ.

أصبحتا تتجولان معًا تحت التعريشة و هما تتحدثان عن «فرجينيا». السيدة «أوبان» مازالت تحتفظ بكل أشياء الصغيرة فى الدولاب الخاص بها فى حجرتها. تعتنى كثيرًا بهذه الأشياء. و فى ذات يوم و هى تتأمل الخزانة خرجت فراشة تطير من داخل الخزانة.

الملابس تصطف جوار بعضها فوق ثلاث عرائس و الأطباق الصغيرة التى كانت تستخدمها. مازالت تحتفظ بالجوارب والمناديل و الأقلام. الشمس تسطع على هذه الأشياء البائسة. الهواء ساخن وأزرق، الشحرور يغرد ،كل شىء هنا يعيش فى سكون عميق. عثرت على قبعة فخمة تتزين بالوبر الطويل بنية اللون لكن السوس نهش معظمها. تجلس «فيلسيتى» و السيدة «أوبان» يتبادلان النظرات فى صمت و الدموع فى العيون. ثم

فتحت السيدة ذراعيها و ألقت الخادمة بنفسها داخل أحضانها وبكى الاثنتان بشدة.

إنها أول مرة يحدث ذلك. سقطت الحواجز و أصبحت «فيلسيتى» تخدمها بكل احترام و تقدير.

عندما سمعت «فيلسيتى» الخطوات العسكرية فى الشارع جرت لتقدم الشراب و الخبز للمصابين بالكوليرا. حمت البولنديين حتى أن أحدهم عرض عليها الزواج ثم نفر منها عندما رآها خادمة فى المطبخ.

بعد ذلك اهتما بالأب «كوليش»، إنه طاعن فى السن معتوه، يعيش جوار النهر فى أنقاض زريبة الخنازير. الأوغاد يلقونه بالحجارة بينما «فيلسيتى» تغسل ثيابه و تنظف له المكان و تقدم له الخبز دون أن يزعج ذلك السيدة. كان يشكرهما بصوته الجاف خوفًا من فقدان هذه النعمة و يشير لهما مودعًا عندما تبتعدان. وفى النهاية مات و أقاموا القداس لتهدئة روحه.

فى هذا اليوم أتى الزنجى الذى يعمل لدى السيد «لازورمنيار» حاملاً الببغاء داخل القفص و رسالة إلى السيدة «أوبان» تعلن أن السيد «لارزومنيار» ترقى و مضطر للسفر، و لذلك يرجوها قبول هذا الطائر و الاهتمام به.

كان هـذا الببغـاء يشـغل «فيلسـيتى» منـذ فتـرة طويلـة لأنـه مـن أمريـكا. هـذا يذكرهـا بابـن أختهـا «فيكتـور». قبلتـه و هـى تقـول:

– ستكون السيدة سعيدة بهذه الهدية.

●●●

(٤)

اسمه «لولو». جسده أخضر، طرفى جناحيه ورديتان، جبهته زرقاء، عنقه ذهبى.

لكنه مهووس بعض العصا التى داخل قفصه. عصبى المزاج، ينزع ريشه، يبعثر فضلاته، يدلق المياه من الإناء. كل هذا يزعج السيدة «أوبان» و لذلك تتركه دائمًا مع «فيلسيتى» التي تعمل على تهذيبه.

فى البداية علمته قول: عزيزى الصغير، فى خدمتك، سيدتى، تحياتى، «مارى». وضعته جوار الباب و أصبح الجيران يندهشون عندما ينادونه باسم «جاكو» و لا يرد عليهم. معظم الببغاوات تسمى بهذا الاسم. يشبهونه بالديك الرومى أو الغراب و هذا يزعج «فيلسيتى». إنها صفات غريبة جدًا و قبيحة بالنسبة لـ «لولو».

على كل حال من الواضح أنه يحب الصحبة. فى يوم الأحد، عندما يأتى الأصدقاء ليلعبوا بالورق يحبسونه فى قفص زجاجى و ينزعج كثيرًا من ذلك. يبدو غاضبًا لأنه يعجز عن توصيل صوته لهم و التفاعل معهم.

يبدو أنه يرى وجه «بورى» مضحك جدًا. يضحك بشدة كلما رآه و تصل ضحكاته إلى الفناء و إلى الجيران فيخرجون إلى النوافذ يضحكون.

يحـاول السـيد «بـورى» السـير جـوار الجـدران و يخفـى وجهـه بالقبعـة حتـى لا يـراه. ثـم يلقـى إليـه نظـرات غاضبـة.

فـى ذات مـرة ضربـه ابـن الجـزار و منـذ هـذا اليـوم أصبـح ينقـره فـى قميصـه كلمـا رآه. «فابـو» هـدده بالذبـح، و هـو ليـس وحشـيًا رغـم عضلاتـه المفتولـة، بـل العكـس، إنـه يميـل إلـى الببغـاء و يـرى أنـه مـرح. علمـه أداء اليمـين الدسـتورية. «فيلسـيتى» تنزعـج مـن كل هـذه المشاكسـات فتضعـه داخـل القفـص و فـى بعـض الأحيـان تحـرره فيتجـول فـى المنـزل.

عندمـا يهبـط السـلم يحـاول تقليـد بنـى الإنسـان. يرفـع قدمـه اليمنـى ثـم اليسـرى فتخشـى عليـه «فيلسـيتى» مـن السـقوط.

ثـم سـقط مريضًـا. لا يسـتطيع الأكل و لا الـكلام. أصبـح لسـانه ثقيـلاً. اكتشـفت وجـود بعـض القشـور لاصقـة فـى لسـانه. إنتزعـت القشـور وعالجتـه. السـيد «بـول» تهـور ذات يـوم و لسـعه بالسـيجار. وفـى مـرة أخـرى السـيدة «لارمـو» ضايقتـه بالشمسـيه و راح يصارعهـا. و في النهايـة فُقـد الببغـاء.

كانـت تتركـه يمـرح فـوق الأعشـاب و غابـت عنـه لمـدة دقيقـة واحـدة و لـم تجـده عندمـا عـادت. فـى البدايـة بحثـت فـى التعريشـة، جـوار الميـاه، تحـت الأسـقف و لـم تهتـم بصرخـات سـيدتها المحـذرة:

- انتبهى! أنت مجنونة.

ثم بدأت البحث فى حدائق «بون إيفاك»، تسأل المارة:

- ألم تر الببغاء بالمصادفة؟

تصف الببغاء بكل دقة للقليلين الذين يجهلونه. و فجأة لمحت شيء ما أخضر اللون يرفرف خلف الطاحونة لكنها لم تجد شيئًا. أحد المارة أكد لها أنه رآه الآن فى متجر أم «سيمون».

جرت إلى هناك و فى المتجر لم يفهم أحد مقصدها. فى النهاية عادت إلى المنزل مرهقة حزينة.

جلست جوار سيدتها و قصت لها كل ما فعلته و فجأة شعرت بشيء ما يسقط على كتفها: «لولو»! أين ذهبت، ربما كنت تريد التنزه؟

ثم اضطرت إلى حبسه بعد ذلك.

عندما أتى الصقيع أصيبت «فيلسيتى» بالاختناق. ثم أصيبت بالمرض فى أذنيها. و بعد ثلاث سنوات أصبحت شبه صماء. تتحدث بصوت مرتفع حتى فى الكنيسة. رغم أن ذنوبها بسيطة، رغم أنها لم تؤذ أحدًا أبدًا طوال حياتها إلا أن الكاهن أعلن أنه لن يتقبل اعترافها إلا فى غرفة المقدسات عقابًا لها.

أصبح الطنين فى الأذن يربكها فلا تعلم ما نقوله لها. تقول سيدتها:

- يا ربى! أنت حمقاء.

فتجيب و هى تدور حول نفسها بحثًا عن شىء ما:

- نعم سيدتى.

أصبحت أفكارها مشوشة. لا تسمع رنين الأجراس و لا صيحات الأبقار. ترى العالم يتحرك حولها فى صمت كما لو أنه عالم من الأشباح. لا تسمع الآن إلا شىء واحد فقط، صوت الببغاء بينما تصرخ السيدة «أوبان»:

- «فيلسيتى»! الباب! الباب!

أصبح الحوار بينهما قليلاً. ربما لا يزيد على ثلاث جمل فقط وهى تجيب برد لا يتناسب أبدًا مع ما يُقال لها. أما «لولو» يتعامل معها كأنه ابنها أو عشيقها. أحيانًا يقفز فوق أصابعها، أحيانًا يعض شفتيها كما لو أنه يريد إطعامها، يفرد جناحيه و يرتجف.

عندما تهب السحب و يهدر الرعد يصرخ كأنه يتذكر وطنه الأصلى في الغابات. هدير المياه يثيره و يجعله يهذى، يطير فى كل مكان، يصعد إلى السقف و يقلب كل شىء. يخرج من النافذة إلى الحديقة ثم يعود بسرعة و يقفز ليجفف ريشه.

فى ذات صباح من شتاء ١٨٣٧ القارص وضعته جوار المدخنة خوفًا عليه من البرد. ثم رأته ميتًا داخل قفصه، رأسه إلى الأسفل ويقبض على أسياخ القفص الحديدية بأرجله. من المؤكد مات

بسبب الحبس لكنها تعتقد أنه مات مسمومًا. و رغم عدم وجود أية أدلة إلا أنها تشك فى «فابو». بكت بشدة حتى قالت سيدتها:

- حنطيه!

ذهبت تطلب النصيحة من الصيدلى الذى كان يحب الببغاء فكتب إلى صديقه «فيلاشى» فى «هافر» ليتولى عملية التحنيط. وبما أن الطريق صعب جدًا حتى أن العربات تتوه فيه اضطرت إلى حمل الببغاء بنفسها حتى «هونفلور».

كان الطريق محفوفًا بأشجار التفاح الميتة، الجليد يتساقط ويخفى الحفر، الكلاب تنبح حول المزارع و هى تتقدم وسط الطريق بالملابس السوداء و تمسك بحقيبة السوق.

عندما وصلت إلى «سان جاتيان» أتت عربة من خلفها مسرعة تثير سحابة كبيرة من الأتربة و يجرها أربعة أحصنة. قائد العربة لسعها بكرباجه فى غضب فسقطت على ظهرها فاقدة الوعى.

أول ما فعلته عندما استعادت وعيها هو أنها فتحت السلة وسعدت أن «لولو» لم يصبه أى أذى. ثم شعرت بالحرارة على خدها الأيسر، تلمسته و لاحظت الدماء.

جلست على الصخور تمسح دماؤها ثم أكلت قطعة الخبز التى معها.

وصلت إلى قمة «ايكوموفيل» و لمحت أضواء «هونفلور» تتلألأ مثل مجموعة من النجوم الساطعة بينما يبدو البحر داكنًا فى الأفق. وقفت فى وهن و هى تتذكر طفولتها البائسة، صدمة أول حب، رحيل ابن أختها، موت «فيرجينيا». هبت كل الذكريات المؤلمة فجأة لتخنقها.

هناك اكتشفت عدم وجود «فيلاشى»، سيأتى بعد أسبوع . أتت إليه فى الموعد المحدد. تأمل «فيلاشى» الببغاء طويلاً ثم أخبرها أن عملية التحنيط تستغرق ستة أشهر. تركت له الببغاء مضطرة و إن شكت أنهم سيسرقونه منها.

أصبحت تعيش فى عزلة داخل حجرتها فى منزل السيدة «أوبان». لا تخرج إلا نادرًا لأنها بطبعها لا تحب الاختلاط بالناس. أصبحت الحجرة غامضة مثل كنيسة صغيرة تحتوى أشياء مقدسة متعددة الألوان. الخزانة تجعل فتح باب الغرفة صعبًا. فى المواجهة تطل النافذة على حديقة مسورة. توجد منضدة جوار الفراش عليها إناء المياه. يوجد مشط و مكعب صابون أزرق فى طبق. على الجدران نرى مسبحات، ميداليات وصور كثيرة للقديسات بالإضافة إلى باروكيات من خشب الجوز. الكومود مغطى بالملآه كأنه مذبح. ثم نجد العلبة الخشبية المزينة بالأصداف التى أهداها لها «فيكتور» كما نجد كراسات كثيرة

وخرائط و زوج من الأحذية بينما نجد القبعة معلقة فى مسمار جوار المرآه. شعرت بقدسية المكان. لقد أتت السيدة «أوبان» بكل الأشياء القديمة التى تستغنى عنها إلى هذه الحجرة.

ثم أتى «لولو» محنطًا فوضعته تحت المدخنة تتأمله كل صباح وهى تتذكر الأيام الخوالى بكل تفاصيلها. أصبحت تتحرك بهدوء مثل من يمشى و هو نائم. لكنها ابتهجت مع الإستعداد للاحتفال بالعيد. ذهبت لتشارك الجيران لتجميل المذبح الذى يقيمونه فى الشارع.

فى الكنيسة تشكو دائمًا للروح المقدسة و هى تعتقد أنه يهتم بأمر الببغاء. ترى أجنحة الملائكة و القديسين تشبه أجنحه «لولو».

حاولت العيش وسط الراهبات، هذا ما تحلم به منذ سنوات لكن السيدة «أوبان» رفضت.

ثم حدث أمر هام. زواج «بول»! بعد أن أصبح كاتبًا فى وزارة العدل ثم الغرفة التجارية و فى الجمارك و البورصة، و بعد أن قام برحلات فى البحار و الغابات، نجح فى العثور على طريقه. ثم عرض عليه مدير السجلات أنه سيعمل على حماية أملاكه المتبقية إذا تزوج من ابنته فتزوجها.

أتى بزوجته إلى والدته فى «بون ايفاك» و أصبحت هى سيدة المنزل. رغم أن هذا جرح مشاعر «فيلسيتى» إلا أن السيدة استراحت لذلك.

بعد أسبوع علمنا بخبر وفاة السيد «بورى» فى بريطانيا. تأكدت الشكوك فى انتحاره و نمت الشكوك فى نزاهته. و بسرعة أدركت السيدة «أوبان» الحقيقة: اختلاسات كثيرة بالإضافة إلى ذلك له ابن غير شرعى و علاقات نسائية كثيرة.

كل هذه الأعمال المشينة أصابت السيدة بآلام حادة فى صدرها، و فى مارس ١٨٥٣ أصبح لسانها ثقيلاً و يبدو كأنه مكسوًا بالدخان. بعد تسعة أيام أتمت عامها الثانى و السبعين. لكن الناس يعتقدون أنها أصغر من ذلك بسبب شعرها الأشقر. الآن لا يزورها إلا عدد قليل جدًا من الأصدقاء.

بكت «فيلسيتى» كثيرًا من أجلها. فكرة أن السيدة ماتت قبلها تقلقلها. هذا يبدو لها عكس قانون الطبيعة.

بعد عشرة أيام أتى الورثة. نبشت زوجة الابن فى الأدراج. اختارت بعض قطع الأثاث و باعت المتبقى.

مقعد السيدة، سخانها، المقاعد الثمانية، كل ذلك تم بيعه. حتى الفراشين الصغيرين و الخزانة التى تحوى متعلقات «فيرجينيا» تم بيعهم و أصبحت «فيلسيتى» تصعد إلى حجرتها مثقلة بالحزن.

فى اليوم التالى علقوا إعلان على الباب و علمت من الصيدلى أن المنزل معروض للبيع فدارت الدنيا حولها. كل ما يزعجها أنها ستترك حجرتها التى كانت مريحة جدًا لـ «لولو». أصبحت تتأمل الحجرة فى شجن و هى تشكو إلى الرب و تدعو للببغاء.

كان لديها ثلاثمائة و ثمانين فرنك ورثتهم عن سيدتها. تحصل على طعامها من الحديقة. لا تهتم كثيرًا للثياب و لا الضوء على سبيل التوفير.

أصبحت لا تخرج أبدًا حتى لا ترى أثاث المنزل معروضًا للبيع فى المتاجر. منذ أن أصابها الدوار أصبحت خطواتها ثقيلة وضاعت قوتها و أصبح «سيمون» يأتى كل يوم ليشعل النيران ويضخ المياه. حتى بصرها بدأ يضيع. لا تفتح النوافذ أبدًا. مرت سنوات على هذا الحال. لا أحد يشترى المنزل و لا يستأجره. سقف حجرتها تحطم لكنها لا تطالب بإصلاحه خوفًا من طردها. تعانى برد الشتاء و فى النهاية أصبحت تسعل الدم .

ذهبت بها والدة «سيمون» إلى الطبيب. و لأن سمعها أصبح ضعيفًا جدًا لم تسمع إلا كلمة واحدة فقط: التهاب رئوى. تعلم جيدًا هذا المرض فقالت بهدوء: آه! مثل سيدتى. ترى أنه من البديهى أن تتبع سيدتها.

اقترب موعد عيد القرابين. اختار السكان أن يكون تقديم القرابين فى فناء السيدة «أوبان».

المرض يتضاعف و الحمي تزداد. تحزن كثيرًا لعجزها عن فعل أى شىء. تتمنى تقديم قربان صغير من أجل الببغاء و الجيران تعترض. هذا غير معقول لكن الكاهن وافق على أن يصلى من أجله.

فى يوم الاحتفال كانت تسعل بشدة. فى المساء تشنج وجهها والتصقت شفتيها و بدأت تتقيأ. و فى مساء اليوم التالى طلبت الكاهن. أتى إليها ثلاث نساء لرعايتها ثم أعلنت أنها ترغب فى الحديث مع «فابو» فأتى يتزين بملابس يوم الأحد لكنه متعكر المزاج. سألته:

- سامحنى، لكنى أعتقد أنك قتلته.

ماذا يعنى هذا؟ تتهمنى بالقتل؟ ألا تعلم من أنا؟ ثم التفت إلى من حوله قائلاً:

- فقدت عقلها، ألا تلاحظون ذلك؟

أصبحت تتحدث إلى الأشباح من حين لآخر. ثم أتت لها والدة «سيمون» بجثة «لولو» المحنطة و قالت لها:

- قولى له الوداع.

لم يكن فى الإناء إلا بقايا جثة الببغاء لكنها لم تلاحظ ذلك بسبب ضعف بصرها. انحنت تقبله بحنو شديد.

●●●

(٥)

هبت رائحة العيد على الحقول. الذباب يرتع، النهر يتلألأ تحت أشعة الشمس الذهبية و ارتفعت الحرارة. والدة «سيمون» تأتى كل يوم لتنام جوارها فى حجرتها.

استيقظت على رنين الأجراس، خرجوا لصلاة المساء و بدأت «فيلسيتى» تهذى. لا تفكر إلا فى الببغاء. تشعر به يحلق حولها وتتبعه.

كل أطفال المدارس، المنشدون و كل رجال المطافئ، يسيرون على الأرصفة بينما الموكب فى وسط الطريق يتقدمهم الجيش السويسرى يحمل الأسلحة القديمة، ثم الشماسين يحملون الصليب الضخم، المعلمون يتبعون المراهقين ثم الراهبات الصغيرات يرتجفن مثل الملائكة و هن يلقين الورود بينما المايسترو يوجه العازفين بحركة يديه. رجلان يحملان المباخر لتبخير العذراء التى يحملها أربعة عمال أشداء و الكاهن يتبختر بثيابه الفاخرة. يتبعه حشد ضخم من الجماهير حتى أن جدران المنازل اختفت فى الزحام.

وصل الحشد إلى المقابر. ارتجفت «فيلسيتى» بالعرق البارد وغطتها والدة «سيمون» و هى تقول لها: فى يوم ما سنموت ونأتى إلى هنا.

علت الصيحات. الطلقات النارية رجت المكان كله. إنها تحية وعاء القربان المقدس. ألقت «فيلسيتى» البرقوق و همست و هى تفكر فى الببغاء: هل هذا يكفي ؟

بدأت سكرة الموت. تشعر بجسدها يخف شيئًا فشيئًا، اللعاب يسيل من فمها و ترتجف.

ثم بدأ الصمت بالتدريج. فى البداية صمت الأطفال ثم الرجال و أصبحنا لا نسمع إلا وقع الخطوات على الأعشاب.

ظهر رجال الدين فى الفناء و صعدت والدة «سيمون» على المقعد لمتابعة القربان بدقة.

زينوا المذبح بالإكليل الأخضر يتوسطه مربع صغير يحيط بالأثر المقدس و برتقالتين. و الكل يتلألأ تحت الضوء الفضى للشعلة حيث نلقى بزهور عباد الشمس و الفانويا و الكوبية. كانت الناس تلقى بكل أنواع القرابين إلى النيران و قدمت «فيلسيتى» الببغاء الذى بدا غريبًا بجبهته الزرقاء.

تقدم رجال الدين و فرشوا الدانتيل و ركع الجميع و هبط الصمت كثيفًا.

فى المساء، بعد الاحتفال، صعدت الرائحة الذكية إلى حجرة «فيلسيتى». استنشقت الرائحة بغموض و أغلقت عينيها و ابتسمت. اضطرب قلبها بشدة ثم بدأ يهدأ رويدًا رويدًا مثل شعلة تخبو أو صدى يتبدد. و مع النفس الأخير رأت ببغاء ضخم يحلق فوق رأسها.

●●●

أسطورة القديس «جوليان»

(١)

والدا «جوليان» يعيشان فى قصر وسط الغابات تحت سطح الهضبة. للقصر أربعة أبراج مدببة من أعلى و مكسوة بالرصاص، محاط بالخنادق و الثكنات من جميع النواحى.

أرضية الفناء متشابكة مثل أرضية الكنائس. المزياب على شكل تنين يتجه بفمه إلى الأسفل كأنه يبصق مياه الأمطار إلى الفسقية. حواف كل النوافذ مزينة بالحجر البازلتى أو الطوب الأحمر ومزهرة.

يوجد مكان آخر محاط بسور من الأوتاد يحتوى على أشجار الفاكهة ثم أحواض زهور مختلفة الأنواع و الألوان ثم تعريشة للاستراحة ثم ممر مشجر لنصب الفخاخ. من الناحية الأخرى نجد مروض الكلاب، الإسطبلات، المخبز، المعصرة و الحظائر. كل هذا محاط بسور من أشجار الكازورينا كثيف كأنه غابة.

نعيش هنا فى سلام منذ فترة طويلة. لا يوجد أى سلب ولا لصوص. الآبار ممتلئة بالمياه. العصافير تبنى أعشاشها وسط الأشجار و الحراس لا يفعلون شيئًا إلا التجول طوال النهار ثم يعودون للنوم العميق فى أبراج المراقبة.

فى الداخل نجد الفراء فى كل مكان. السجاد مفروش فى كل الحجرات ليحمى من البرد. الخزانات مكتظة بالملابس و براميل النبيذ. الخزائن مكتظة بحقائب المال.

فى صالة الأسلحة نجد بين المرايات حيوانات محنطة وأسلحة من كل العصور و من كل البلاد منذ العماليق و رمى الرمح حتى المصارعين بالإضافة إلى أسلحة النورمنديين.

المطبخ كبير جداً حتى أن الخادمة تستطيع أن تدور ببقرة كاملة داخله. الكنيسة رائعة مثل منصة الملك. و فى مكان ضيق نجد فرن يعود إلى العصر الرومانى، لكن صاحب المنزل يهتم به كثيراً و هو يعتقد أنه أثر وثنى.

السيد يتجول فى المنزل و هو يرتدى دائماً حذاء الثعلب. يحكم بين رعاياه و يفض المنازعات بين الجيران. أثناء الشتاء يتأمل تساقط الجليد و هو يقرأ كتب التاريخ. منذ الأيام الأولى الجميلة يتجول فوق البغلة فى الطرق الضيقة بين حقول القمح و يتحاور مع القرويين و يعظهم. بعد مغامرات كثيرة تزوج آنسة من الطبقة الراقية.

كانت بيضاء، مغرورة، صارمة. تتبختر فى ثيابها الفاخرة، ذيل ثوبها يزحف خلفها على الأرض على بعد ثلاث خطوات تقريباً. طقوس خدمتها تشبه طقوس الدير. كل صباح توزع مهام

العمل على الخادمين و الخادمات. تتابع عمل المربى و المسلى، تراقب غزل الصوف، تزين غطاء المذبح و هى تدعو و تتضرع إلى الرب ليكون لها ابن.

و عندما أنجبت أقام السيد احتفالات ضخمة لمدة ثلاثة أيام وأربعة ليال تحت ضوء المشاعل فى الحدائق الغناء. التهم الناس أشهى المأكولات، دجاجات ضخمة فى حجم الخراف. كان الحشد ضخمًا جدًا حتى أن الأوانى لم تكف فأصبحوا يشربون فى القباعات.

لم تحضر السيدة كل هذه الاحتفالات. كانت تجلس فى فراشها بهدوء. أثناء الليل لمحت بين أشعة القمر المنسابة من النافذة شبحًا يتحرك. رجل عجوز يرتدى ملابس رثة و يمسك بالمسبحة. إنه ناسك. اقترب من الفراش و قال دون أن يحرك شفتيه:

- اسعدى أيتها الأم! ابنك سيصبح قديسًا.

كادت أن تصرخ لكنه انزلق بين أشعة القمر و ارتفع فى الهواء بهدوء ثم اختفى. ارتفعت أصوات الغناء ممزوجة بصلوات الملائكة. دارت رأسها و سقطت على الوسادة المزينة بصورة شهيد.

فى اليوم التالى استجوبت كل الخادمين و لم يشاهد أى منهم هذا الزاهد. حلم أم علم؟ لا أحد يلعم. لكنها رسالة سماوية و لم تخبر أحدًا بذلك حتى لا تخدش كبرياءها.

انصرف المدعوون فى الساعات الأولى من النهار. وقف والد «جوليان» على البوابة لتوديعهم و عندما انصرف آخرهم رأى أمامه شحاذًا وسط الضباب. رجل طيب ذو لحية جميلة يتزين بالحلقان الفضية فى ذراعيه و يمسك البرقوق المتلألئ. قال له بشكل غامض:

– آه! ابنك!... كثير من الدماء... كثير من المجد... أسرة الإمبراطور ستسعد كثيرًا.

التفت الوالد يمينًا و يسارًا يناديه بكل قوته. لا يوجد أحد. الهواء يصفر و ضباب الصباح يرتفع.

اعتقد أنها هلاوس ناتجة عن الإرهاق الشديد و قلة النوم وقال فى نفسه: لو تحدثت عن هذا الأمر سيسخرون منى.

مع ذلك يفكر كثيرًا فى المستقبل المزهر لابنه. الرؤية ليست واضحة و هو يتشكك فى الأمر كله.

كل من الزوجين أخفى السر لكنهما يحبان ابنها بشكل غامض، ينظران إليه باحترام كما لو أنه مختار من الرب. أعدا له فراشًا من أجود الأقمشة فوقه مصباح على الطراز الكولومبى. خصصا له ثلاث خادمات. بشرته وردية، عيناه زرقاوان. يرتدى معطفًا وزينا القلنسوة بالمجوهرات. يبدو مثل مسيح صغير. والغريب فى الأمر أن أسنانه نمت دون أن يبكى أبدًا.

عندما بلغ السابعة من العمر اصطحبته والدته لينشد مع الكورال فى الكنيسة بينما اصطحبه والده لركوب الخيل ليعلمه الشجاعة. ابتسم الصغير و تعلم بسرعة كل ما يخص الفروسية.

على يد راهب كبير تعلم الكتابة المقدسة، الأرقام العربية، الأدب اللاتينى. كما تعلم الرسم الأنيق الجذاب. كان الراهب يعلمه فى قمة البرج بعيدًا عن الضوضاء. و بعد انتهاء الدرس يتجول معه فى الحديقة لدراسة الزهور.

فى بعض الأحيان نلاحظ فى عمق الوادى مجموعة من الأبقار تحت قيادة راع يرتدى زى الشرق. أدرك الوالد أنه تاجر فأرسل له أحد الخدم. الغريب تقدم إلى الردهة بخطوات واثقة و أخرج من حقائبه قطع الحرير، اللوحات، التوابل و أشياء غريبة نجهل استخدامها.. و فى النهاية ذهب الرجل الطيب بعد أن حقق أرباح كثيرة دون أى عنف. فى أحيان أخرى يأتى بعض الحجيج إلى الباب مبتلى الثياب و يدخنون أمام الموقد. بعد أن نقدم لهم الطعام يقصون عن أسفارهم و مغامراتهم فى البحر و سيرهم على الرمال المحترقة. يقصون عن وحشية الوثنيين و القوافل ثم يمنحون الصغير بعض القواقع.

اعتاد الوالد إقامة الولائم لرفقاء السلاح. يشربون و هم يتذكرون حروبهم، هجومهم على الحصون و الصراعات مع الآلات

والجرحى و كان «جوليان» يستمع إليهم و هو يطلق صيحات الدهشة و الإعجاب. لذلك أصبح الوالد يشك فى أن ابنه سيصبح محاربًا. و فى ذات ليلة، بعد خروجهم من الصلاة و مرورهم وسط الفقراء و المساكين راح يمنحهم بسخاء و نبل. لذلك اعتقدت الأم أنه سيصبح كاهنًا.

كان الصغير يعيش فى القصر جوار والديه و يجلس ساكنًا متعبدًا على ركبتيه فترات طويلة.

فى ذات ليلة، أثناء القداس، لمح فأرًا أبيضًا يخرج من ثقب فى الجدار. اتجه الفأر إلى المذبح و دار دورتين أو ثلاث ثم عاد إلى جحره. يوم الأحد التالى ابتهج لفكرة أنه قد يرى الفأر مرة أخرى لكن هذا لم يحدث فأصبح يكرهه و قرر التخلص منه.

أغلق الباب و وضع بعض الفتات أمام الجحر و انتظره بالعصا. بعد فترة طويلة ظهرت الرأس ثم ظهر الفأر كله فضربه ضربة خفيفة و وقف مذهولاً أمام الجسد الصغير الساكن جوار بقعة من الدم. ألقى الفأر إلى الخارج و لم يخبر أحدًا بذلك.

كانت كل أنواع الطيور تلتقط الحبوب من الحديقة. وضع بعض الحبوب فى طبق و دسه بين فروع الأشجار و عندما يسمع زقزقة عصفور يقترب يضربه بالعصا فيسقط فوق أكتافه ويضحك سعيدًا فخورًا بنفسه.

و فـى يـوم آخـر أثنـاء تجولـه بالقـرب مـن سـياج الأشـجار لمـح حمامـة ضخمـة تسـتمتع بأشـعة الشـمس. تأملهـا بحـرص ثم التقـط حجـرًا مـن شـق فـى الجـدار و ألقـى بـه بسـرعة نحـو الحمامـة فسـقطت صريعـة.

أصبـح يصطـاد فـى كل مـكان و فـى أيـة لحظـة، يصطـاد بخفـة الـكلاب الصغيـرة المدربـة. يصطـاد العصافيـر و الحمام. يسـعد بالأجنحة المكسـورة المرتجفـة. يضيـق بنبـض الحيـاة فـى هـذه الطيـور فيعمـد إلـى خنقهـا مسـتمتعًا بنبضـات القلـب الـذى يتوقـف ببـطء بـين يديـه.

أثنـاء تنـاول العشـاء أعلـن الأب أنـه فـى مثـل هـذه السـن يجـب تعلـم أصـول الصيـد. أتـى لـه بكتـاب قـديم يحتـوى كل التفاصيـل فـى شـكل سـؤال و جـواب. مـن شـروط النبـل و الرقـى أن يتعلـم تربيـة الـكلاب وترويـض الصقـور و نصـب الفخـاخ. يجـب أن يتعلـم كيفيـة التعـرف علـى الإيـل مـن رائحتـه و الثعلـب مـن آثـاره. كيـف يتتبـع الفريسـة، كيـف يلقـى الحـراب فـى الجحـور، و مـا هـى الريـاح المناسـبة و مـا هـى الصيحـات اللازمـة و القواعـد الدينيـة للصيـد.

بعـد أن حفـظ «جوليـان» كل هـذه الخطـوات عـن ظهـر قلـب قـدم لـه الأب العتـاد الـلازم.

مـن ضمـن العتـاد أربعـة و عشـرون كلبًـا شرسًـا أكبـر مـن الغـزال لكـن مطيعـين. بالإضافـة إلـى سـبعة عشـر زوجًـا من الـكلاب البرتونية

تتزين بالبقع البيضاء و الحمراء، عضلاتها قوية و تتمتع بالنفس الطويل. بالنسبة لمهاجمة الخنازير يوجد أربعون كلبًا بلجيكيًا فى حجم الدب. فى الفناء نجد ثمانية كلاب ضخمة تهاجم أشجع الفرسان و لا تخش حتى الأسد نفسه. كل الكلاب تتغذى جيدًا وتشرب من إناء نظيف و تحمل أسماء رنانة. أما الثوب أسود يتلألأ مثل الساتان.

قام الوالد بكل أنواع التدريبات. بالمال اشترى له صقور من «كوكاس» و أخرى من «بابيلون» و أخرى من ألمانيا. أقام مسكنًا للاحتفاظ بكل هذه الحيوانات فى الحقل جوار أشجار الكازورينا. ويذهب الصغير لدراسة الحيوانات و سلوكها من حين لآخر. كما أتى له بالمصائد و الفخاخ و الشباك و كل أدوات الصيد.

من المعلوم أن كل نوع من الكلاب له دور محدد في عملية الصيد. تبدأ الكلاب الخفيفة السريعة المطاردة بينما تتقدم كلاب أخرى زاحفة بحرص شديد. و فى اللحظة المناسبة تأتى صيحة الصياد و يبدأ الهجوم. يتطاير التراب فى الهواء ثم تأتى النساء والأطفال و الخدم، يندفع الجميع للحصول على الفريسة بسهولة. فى بعض الأحيان نضرب الطبول لإرباك الأرانب البرية فتسقط الثعالب فى الحفر أو فى الفخ و أحيانًا نصطاد الذئب من أرجله.

لكـن «جوليـان» يحتقـر هـذه الأسـاليب الاصطناعيـة و يكـره الالتـزام بالطقـوس. يبـدو أن الغرائـز البدائيـة الفطريـة تسـيطر عليـه، لكنهـا غرائـز صافيـة مثل الجليـد. يفضـل السـير فـى الأماكـن البعيـدة. يرتـدى سـترته الجلديـة و يزيـن أرجـل الصقـر بالأجـراس. يتجـول بخفـة عبـر السـهول و يمـد ذراعـه ليقـف عليـه الصقـر بثبـات. مـا أن يكتشـف الفريسـة حتـى يلقـى بسـهمه. تجـرى الضحيـة بسـرعة مجنونـة مخضبـة بالدمـاء حتـى تختفـى فـى الجبـال. ثـم ينطلـق الصقـر بسـرعة و يهبـط فـوق الضحيـة يرفـرف بأجنحتـه فـى تحـد. و فـى أحيـان أخـرى يسـتخدم طائـر البلشـون أو النسـر.

يهـوى الجـرى عبـر الحقـول و هـو يضـرب جـزوع الأشـجار برمحـه بينمـا الـكلاب تجـرى حولـه. يقفـز فـوق البـرك و يصعـد إلـى الأدغـال. عندمـا يجـد الإيـل يتألـم مـن عـض الـكلاب يهاجمـه و يمـزق جسـده إربًـا و هـو حـى.

فـى أيـام الضبـاب يذهـب إلـى الشـاطئ لصيـد الأوز و ثعالـب المـاء و البـط.

منـذ الفجـر ينتظـره ثلاثـة مـن الخـدم بينمـا الراهـب العجـوز يجلـس فـى صومعتـه، يشـير لـه و يناديـه ليباركـه و يعظـه لكـن «جوليـان» لا يلتفـت إلـى شـىء. يندفـع تحـت الشـمس الحاميـة والأمطـار والعواصـف. يشـرب الميـاه بيـده مـن منابعهـا الطبيعيـة، يتغـذى علـى

الثمار البرية. و عندما يشعر بالتعب يسترح تحت شجرة. لا يعود إلا فى منتصف الليل ملطخًا بالدماء، أشعث الشعر و نشتم منه رائحة الحيوانات الوحشية. لقد أصبح وحشيًا مثلهم. عندما تحتضنه والدته يقف ثابتًا جامدًا كأنه يفكر فى أشياء عميقة.

يقتل الدب بسكينه، و الثيران بفأسه، و الخنازير البرية بالخنجر. و فى ذات يوم لم يكن معه إلا العصا و صارع الذئاب الملتفة حول جثة الفريسة.

فى ذات صباح، فى الشتاء، خرج مدججًا بسلاحه قبل سطوع الشمس. القوس معلق بكتفه و السهام فى جعبته. متبوعًا بكلابه الشرسة المدربة ترج الأرض بقوتها.

تساقط الجليد و هبت الرياح العنيفة و بدا البرق فى الأفق. لمح بعض الأرانب تقفز فى فرح جوار جحورها و هجمت الكلاب هنا و هناك تفتك بها.

وصل إلى بداية الدغل. على غصن شجرة مكسو بالجليد لمح ديك برى يدس رأسه تحت جناحه و يرتجف من البرد. قطع ساقيه بضربة سيف و تركه مكملاً مسيرته.

بعد ثلاث ساعات رأى نفسه فوق قمة جبل شاهق حتى أن السماء بدت شبه سوداء. رأى أمامه صخرة ضخمة تنتهى إلى هاوية يحرسها إيلان بريان. لا يوجد معه سهام الآن لأنه ترك

حصانه خلفه. فكر فى الهبوط إليهما بنفسه. انحنى حتى وصل إلى الإيل الأول و غرز الخنجر فى رقبته و هرب الإيل الآخر فى فزع. اندفع لملاحقة الهارب لكنه انزلق و سقط فوق جثة الإيل الأول على شفا الهاوية.

هبط إلى السهال متتبعًا شاطئ النهر. الجوارح تحلق على ارتفاع منخفض فراح يضربها بسوطه فى وحشية و لم تستطع أى منها الهرب.

الهواء الرطب أذاب الجليد حتى أصبح الضباب كثيفًا وسطعت الشمس. بدا كل شىء يتألق فى البحيرة مثل الرصاص. لمح بين المستنقعات حيوان يجهله، سمور أسود الفم. رغم بعد المسافة أصابه بالسهم و حزن كثيرًا لأنه لم يحصل على فراءه.

ثم تقدم فى ممر طويل بين الأشجار الشاهقة المتشابكة فى مدخل الغابة. لمح إيلاً وحيدًا ثم طائر أبو زريق يخرج من عشه ثم طاووس على شجرة يتفاخر بذيله. عندما اتجهت هذه الحيوانات إلى الغرب ظهر إيل آخر و أبو زريق آخر و طاووس آخر. ظهرت شحارير و فئران الجبل، الثعالب و القنافذ و الوشق. كمية ضخمة من كل أنواع الحيوانات تلف و تدور حوله، ترتجف، تنظر إليه فى توسل و ألم. لكنه لا يتعب أبدًا من القتل. يقتل بالقوس و السيف والسكين، يقتل و يصارع دون أن يفكر فى أى شىء و لا يعقل أى

شـىء. يقاتـل و يصـارع فـى أماكـن مجهولـة لإثبـات وجـوده و إشـباع غـروره. يقتـل بيسـر و سـهولة كمـا لـو أنـه يعيـش فـى حلـم ثـم توقـف برهـة لمشـهد غريـب. مجموعـة مـن الأيائـل فـى الـوادى تلتـف حـول نفسـها فـى دائـرة، يبحثـون عـن الـدفء خـلال أنفاسـهم السـاخنة. ابتهـج لفكـرة المذبحـة التـى سـيقوم بهـا . هبـط مـن حصانـه، شـمر سـاعديه وبـدأ فـى الرمـى.

مـع أول سـهم أدارت كل الأيائـل رءوسـها. دب الهـرج و المـرج. لـم يسـتطع القطيـع تسـلق الهضبـة التـى فـى نهايـة الـوادى. راحـت الأيائـل تتخبـط ببعضهـا فـى زعـر و هـو ينهمـر بسـهامه بـكل سـرعة و خفـة حتـى تكومـت أجسـاد الفرائـس فـى شـكل تـل كبيـر. مـات القطيـع كلـه فـوق الرمـال، سـالت الدمـاء، خرجـت الأحشـاء و تدلـت الألسـنة.

بعـد أن هبـط الظـلام لمـح خلـف الغابـة، مـن بـين فـروع الأشـجار، السـماء حمـراء مثـل فـراش مـن الـدم. اسـتند إلـى شـجرة يتأمـل الفرائـس فـى نشـوة. لا يفهـم كيـف اسـتطاع فعـل كل ذلـك؟

فـى الناحيـة الأخـرى مـن الـوادى، علـى حافـة الغابـة، لمـح إيـل وأنثـاه و وليدهمـا. الذكـر أسـود ضخـم لـه سـتة عشـر قرنًـا و لحيـة بيضـاء. الأنثـى شـقراء مثـل أوراق الشـجر الميتـة تلتهـم بعـض الثمـار بينمـا الرضيـع يرضـع مـن ثديهـا.

شد قوسه و قتل الرضيع. نظرت الأم إلى السماء و صرخت فى ألم. صرختها تمزق أى قلب بشرى لكن قلب «جوليان» لا يتأثر أبدًا و رمى السهم الثانى إلى الأم فقتلها.

حاول الذكر القفز لكن «جوليان» داهمه بسهمه الأخير فأصاب رأسه. لكن يبدو أن الإيل لم يشعر بذلك لأنه قفز فوق الجثث وتقدم لمهاجمة «جوليان» الذى تراجع فى زعر. توقف الحيوان ملتهب العينين فى مهابة مثل بطريرك أو قاض. دقت الأجراس فى البعيد و قال الإيل ثلاث كلمات:

– ملعون! ملعون! ملعون! فى ذات يوم ستقتل والدك و والدتك.

قال الإيل ذلك ثم تمدد على الأرض . أغلق عينيه و مات.

ذُهل «جوليان» مما حدث و شعر بالتعب فجأة. داهمه حزن شديد و بكى بشدة و هو يخفى وجهه فى يديه.

فقد حصانه و كلابه و أصبح معزولاً مهددًا بكل الأخطار. ارتجف فى خوف و جري فى الحقول. اختار ممر بطريقة عشوائية و فى النهاية وصل إلى باب القصر.

لم يستطع النوم فى هذه الليلة. يرى الإيل الأسود تحت ضوء المصباح المتلألىء. نبؤته تقلقله. يحاول المقاومة فيصرخ:

– لا! لا! لا أستطيع قتلهما!

ثم يؤكد لنفسه: لن نستطيع فعل شيء دون إرادتنا. لكنه يخشى من أن يتمكن منه شيطانه.

سقط مريضًا لمدة ثلاثة أشهر. والدته تصلى فى قلق جوار فراشه. الوالد يجوب كل الردهات يطلب مساعدة السحرة لعلاج ابنه و حصلوا على أملاك كثيرة مقابل ذلك. يقولون أن سبب مرضه رياح كارثية أو الحب. لكن الشاب الصغير يغض بصره ولا يجيب على أى سؤال.

ثم بدأ يتجول فى الفناء بمساعدة والده و الراهب العجوز. وعندما استعاد صحته تمامًا قرر عدم الصيد أبدًا.

حاول الأب معاونة ابنه لاستعادة ثقته بنفسه فقرر أن يقدم له سيفًا ضخمًا يحتفظ به فوق دولاب ضخم لا نصل إليه إلا بالصعود على السلم. صعد «جوليان»، و لأن السيف كان ثقيلاً جدًا سقط منه على بعد سنتيمترات من رأس والده. اعتقد أنه قتل أبيه فسقط مغشيًا عليه.

منذ هذه اللحظة أصبح يتجنب الأسلحة. يشحب وجهه عند رؤية أى قطعة من الحديد. و هذا يزعج أسرته كثيرًا. الراهب يدعوه لاستكمال الصيد حفاظًا على أمجاد أسلافه العظام.

السادة يأتون كل يوم للعب بالرماح و نجح «جوليان» فى التغلب على مخاوفه بسرعة و أصبح قادرًا على تصويب رمحه إلى غطاء

الزجاجة، أصبح قادرًا على تحطيم أسنان الديك وغرس مائة مسمار فى الباب.

و فى ذات ليلة من ليال الصيف، كان الضباب كثيفًا يعيق الرؤية. كان يجلس تحت التعريشة فى الحديقة و لمح جناحين أبيضين فى الضباب. لم يشك لحظة أنه طائر اللقلق فرمى رمحه ودبت الصرخة. كانت والدته ترتدى طرحة بيضاء و تنظف الجدار.

و فر «جوليان» هاربًا من القصر على الفور.

●●●

(٢)

ذهب ليعيش وسط مجموعة من المغامرين كانوا يمرون بالمنطقة.

عرف الجوع و الظمأ، الحمى و الضياع، عرف الشجار والتنافس مع الأوغاد. عانى من قسوة الرياح. تجمدت أطرافه من الدروع. و لأنه كان قويًا شجاعًا، معتدل حكيم، إستطاع الحصول على القيادة بسهولة.

يتقدم جنوده فى بداية المعارك حاملاً سيفه الضخم. أثناء الليل، بينما الإعصار يرتع فى كل مكان، يتسلق جدران القلاع بالحبال. لا يهتم بشراسة المعركة مهما كانت. سُحق درعه كثيرًا من الصخور الثقيلة الملقاة من الأعداء. سقطت فوقه جسور كثيرة محملة بالجنود. حوصر كثيرًا وسط الفرسان المدججة بالسلاح لكنه قادر على مبارزة أربعة عشر فارسًا فى نفس الوقت. تحدى كل من يعترض طريقه فى الحقول. اعتقدوا فى وفاته أكثر من عشرين مرة.

ينجو كل مرة بفضل الرب لأنه يحمى رجال الكنائس و اليتامى و الأرامل و العجائز بصفة خاصة. التجار يستنجدون به و يقدمون له كل الإحترام خوفًا من اللصوص و قطاع الطرق.

يعيش تحت حمايته العبيد الهاربين و الثوار و الأوغاد من الفقراء و كل من يحتقر الخوف. نمت قواته و أصبح مشهورًا والناس تبحث عنه.

أنقذ ملوك فرنسا و إنجلترا، أنقذ الحجاج فى طريقهم إلى القدس، أنقذ ملوك الحبشة و إمبراطور «كالكيت». حارب الزنوج الذين يرتدون جلود فرس النهر و يركبون الحمر الحمراء. حارب الهنود الصفر الذين يتزينون بتاج من القماش و سيوف بتارة تتلألأ مثل المرآه. هزم سكان الكهوف و أكلة لحوم البشر. عبر مناطق شديدة الحرارة حتى أن شعور الناس تحترق من لهيب الشمس وعبر مناطق جليدية تجمد الدماء فى العروق فيتساقط الرجال. عبر مناطق غارقة فى الضباب حتى تبدو الناس مثل الأشباح.

أصبح الملوك و الأمراء الحائرين يطلبون نصيحته. حصل على امتيازات كثيرة من محاوراته مع السفراء. لو أُصيب أى أمير بأذى يذهب فورًا لنجدته. واجه الشعوب و أنقذ ملكات من الأسر.

في ذات مرة استنجد به إمبراطور «أوكتانيا» الذى هزم مسلمى إسبانيا و أسر أخت الخليفة و اتخذها محظية له. طالب الخليفة التحاور مع الإمبراطور و أتى لزيارته. أتي مصحوبًا بقوة عسكرية ضخمة و ذبح كل الموجودين بالقصر ثم حبس الإمبراطور فى زنزانة للاستيلاء على كل ثروته.

أتى «جوليان» برجاله و خلص المدينة من الحصار. قطع رأس الخليفة و لعب بها الكرة ثم أخرج الإمبراطور من محبسه و أعاد إليه عرشه.

قدم له الإمبراطور حقائب كثيرة مليئة بالذهب لكنه رفض. اعتقد الإمبراطور أنه يطمع فيما هو أكثر فمنحه ثلاثة أرباع ثروته و رفض أيضًا. ثم عرض عليه مشاركته فى الملك و شكره «جوليان». بكي الإمبراطور، لا يعرف كيف يكافئه و فجأة ضرب رأسه بيده وقال كلمة فى أذن أحد رجاله. اهتزت الستائر وظهرت فتاة صغيرة.

فى عينيها بريق هادئ. ابتسامتها صافية. ضفائرها تتشابك مع المجوهرات التى تزين ثوبها. نلمح رشاقتها و تناسق قوامها تحت ثوبها الشفاف. سقط «جوليان» فى الحب رغم أنه لا يعلم إلا حياة العنف.

هكذا تزوج ابنة الإمبراطور ليعيش معها فى القصر الذى قدمته لها والدتها. بعد طقوس الزواج انصرف أهلها بكل أدب واحترام.

القصر من الرخام الأبيض، مشيد على الطراز البربرى وسط أشجار البرتقال. الشرفات المزهرة تهبط حتى شط الخليج حيث نجد القواقع الوردية تطقطق تحت الأقدام. خلف القصر تمتد غابة واسعة. السماء صافية تمامًا، الأشجار تتمايل مع نسمات البحر ورياح الجبال البادية فى الأفق.

فى لحظة الغروب تتلألأ الحجرات بأشعة الشمس الصافية. الأعمدة المرتفعة تحت القبة مزينة بالنقوش المبهرة. النافورات فى الصالات، الموازييك فى الأفنية بالإضافة إلى الأصداف. كل هذا محاط بالهدوء حتى نسمع هفهفة الثوب أو صدى الصوت.

لم يخرج «جوليان» للحرب أبدًا. يخلد للراحة محاط بشعب طيب. يأتى إليه الناس كل يوم لتقديم الهدايا.

يرتدى ثوبًا بنفسجيًا، يجلس جوار النافذة و هو يتذكر مغامرات الصيد. يريد أن يجرى فى الصحراء خلف الغزلان و النعام، يريد الاختفاء وسط الأشجار مثل الفهود. يتمنى عبور الغابات ومصارعة وحيد القرن، يحلم بالصعود إلى قمم الجبال لمشاهدة الصقور والوصول إلى المناطق الجليدية لمصارعة الدب الأبيض.

فى بعض الأحيان يرى نفسه فى الحلم مثل أبينا «آدم»، يعيش فى الجنة وسط الحيوانات. يقتلهم بمجرد أن يمد يده. أو يرى نفسه يكبل كل الحيوانات من الفيل إلى الأسد فى صفوف طويلة. يرى نفسه يرشقهم بالرماح الحيوان تلو الآخر و يسعد بأعدادهم الوفيرة و بنظرات الفزع فى عيونهم.

بعض الأصدقاء من الأمراء يدعونه للخروج معهم إلى الصيد لكنه يرفض بشدة معتقدًا أن هذا أفضل علاج لآلامه. قتل الحيوانات يذكره بمصير والديه. يجزع كثيرًا لفراقهما حتى أصبحت آلامه غير محتملة.

حاولت زوجته إعادة البهجة إليه فأتت باللاعبين و الراقصات. كانت تتجول معه عبر الحقول فى عربة مكشوفة. اصطحبته فى قارب للاستمتاع بمراقبة الأسماك الغريبة فى المياه الصافية مثل السماء. تداعبه بإلقاء الورد فى وجهه، تركع أمام قدميه، تربط ثلاث حبال بين يديه و تعزف عليهم كأنهم آلة موسيقية ثم تسأله بخجل :

- ماذا بك سيدى العزيز؟

يتألم فى صمت و لا يجيبها و في النهاية أفصح لها عن هواجسه.

شعرت بكل آلامه و تفهمت كل مخاوفه. فى الغالب مات والداه و إن كانا على قيد الحياة لن يراهما إلا بالمصادفة. لماذا كل هذه المخاوف؟ يجب أن يخرج للصيد.

كان يستمع إليها مبتسمًا لكنه لم يتراجع عن قراره. و فى ذات يوم من شهر أغسطس، و هما فى حجرتهما ركعت لتصلى. فى هذه اللحظة سمع تسلق ثعلب تحت النافذة و لمح بعض الحيوانات فى الظلام. كان الإغراء قويًا و تخلص من كل مخاوفه. دُهشت زوجته عندما قال لها :

- سأسمع نصيحتك. سأعود مع بزوغ الشمس.

خشت عليه من مغامرة شرسة لكنه طمأنها و خرج مذهولاً فخورًا بنفسه.

بعد فترة قصيرة جاء أحد الخدم يعلن وجود غريبين يطلبان مقابلة السيد و عندما علما بغيابه يطلبان مقابلة السيدة.

رجل عجوز و إمرأة عجوز منحنيان مغبران، يرتديان ملابس رثة. كل منهما يتعكز على عصا. أعلنا أن لديهما أخبار عن والدى «جوليان» فطلبت منهما انتظاره.

سأل العجوزان إذا كان «جوليان» يحب والديه، هل حدثها عنهما فأجابت:

- نعم.

صرخ العجوزان:

- حسنًا! نحن والداه.

جلس العجوزان مهدودين من الإرهاق. لكن لا يوجد أى دليل يؤكد للزوجة صدق حديثهما فراح العجوزان يصفان لها علامات مميزة فى جسد ابنهما.

قفزت الزوجة تنادى الخدم و تطلب إعداد الطعام لهما. رغم جوعهما الشديد لا يأكلان. ترتجف أيديهما النحيلة و هما يمسكان الأكواب.

راح العجـوزان يسـألان ألـف سـؤال و سـؤال عـن «جوليـان» والزوجـة تجيـب علـى كل الأسـئلة بحـرص شـديد حتـي لا تكشـف عـن الأفـكار المرعبـة. ثـم راح الأبـوان يقصـان لهـا مـا حـدث.

بعـد انتظـاره كثيـرًا خرجـا يبحثـان عنـه لمـدة سـنوات طويلـة. بحثـا عنـه فـى كل مـكان و لـم يفقـدا الأمـل أبـدًا. دفعـا الكثيـر مـن الأمـوال لملاجـئ الأيتـام و المستشـفيات. دفعـا الكثيـر لقطـاع الطـرق و اللصـوص حتـى أفلسـا و أصبحـا يشـحذان الآن. كل هـذا ليـس مهمًـا طالمـا أنهمـا سـيلقيان ابنهمـا و أبديـا سـعادتهما بزواجـه منهـا و راحـا يقبلانهـا.

دهش العجوزان من ثراء المنزل. تفحص العجوزالجدران ثم سأل:

- لماذا نضع شعار إمبراطور « أوكتانيا» هنا؟

أجابت الزوجة:

- إنه أبى!

ارتجـف العجـوزان و همـا يتذكـران نبـوءة الغجـرى و أقـوال الزاهـد. مـن المؤكـد أن مجـد ابنهمـا مـا هـو إلا بدايـة للعظمـة الأبديـة. ثـم بـدأ العجـوزان فـى التثـاؤب.

مـن الواضـح أنهـا كانـا يتمتعـان بالجمـال فـى شـبابهما. مازالـت الأم تحتفـظ بشـعرها الـذى يتهـدل مـن طرحتهـا و ينسـاب علـى وجنتهـا. أمـا الأب بقامتـه الطويلـة و لحيتـه البيضـاء يبـدو مثـل تماثيـل الكنائـس.

اقترحت عليهما الزوجة عدم انتظار «جوليان» الليلة و قادتهما إلى فراشها و غط العجوزان فى النوم العميق حتى سطع النهار وزقزقت العصافير.

أما «جوليان» عبر الحديقة و اتجه إلى الغابة بخطوات عصبية مستمتعًا برائحة الأشجار و الهواء الطازج.

ظلال الأشجار تتمدد فوق الطحالب. ضؤ القمر يتمدد فى الأماكن المكشوفة و «جوليان» يتقدم معتقدًا أنه يلمح بحيرة أو مستنقعًا هادئًا يحتوى الأعشاب البرية. الصمت التام يغلف المكان كله و لم يلمح بعد بضعة دقائق إلا بعض الحيوانات ترعى جوار قصره.

أصبحت الغابة أكثر كثافة و العتمة أشد ثم هب الهواء ساخنًا لينًا و توغل «جوليان» بين أوراق الأشجار الميتة و استند إلى شجرة ليلتقط أنفاسه. فجأة شعر خلفه بكتلة شديدة السواد، خنزير برى. لم يجد الوقت الكافى لالتقاط سهمه فجرى مثل البؤساء والمساكين.

خرج من الدغل و لمح ذئب يمرح بهدوء فى الممر. استدار الذئب ليتفحصه ثم فر هاربًا. كان «جوليان» يترك مسافة كافية بينه و بين الذئب ليسمح له استكمال الهروب.

خلال ذلك اكتشف سهل لا نهاية له ثم تل من الرمال و أخيرًا وجد نفسه فوق هضبة تشغل مساحة كبيرة. الأحجار تتناثر بين الأطلال ثم عظام الموتى و صلبان كثيرة تبدو كأنها تتحرك تحت

ضوء القمر. شعر بالضباع خلف الأشجار فاستل سيفه و فرت الضباع هاربة و هى تثير الأتربة خلفها.

بعد ساعة التقى فى الوادى ثور شرس ذو قرون ضخمة يحفر الرمال بقدميه. غرس حربته فى رقبته. تلألأ الحيوان كأنه مصنوع من البرونز. أغلق «جوليان» عينيه حتى لا يرى مشهد القتل لكن عندما فتح عينيه لم يجد الثور أمامه.

خجل من نفسه و شعر بقوة عليا تهديه. لكى يعود إلى داره عاد إلى الغابة يقطع الأعشاب بسيفه ثم لمح ابن عرس ينزلق بين قدميه و نمر يقفز فوق أكتافه و ثعبان يصعد ملتفًا حول قطعة حطب.

كان هناك غراب ضخم ينظر إليه و كانت الومضات تتساقط هنا وهناك كأن السماء تمطر على الغابة بكل نجومها. إنها عيون الحيوانات، قطط وحشية، سناجب، بومات، ببغاوات و قرود.

دافع عن نفسه بسهامه لكن السهام تسقط على أوراق الشجر فى شكل فراشات بيضاء. بدأ يدافع عن نفسه بالحجارة لكن الحجارة لا تصيب أحد. بدأ يتذمر و هو يلعن الأقدار.

كل الحيوانات التى طاردها من قبل موجودة حوله الآن، تلتف حوله و تضيق الحصار. بعض الحيوانات جالسة فى جحورها والبعض الآخر يستعد للهجوم. وقف بينهم متجمدًا من الرعب عاجزًا عن فعل أى شىء.

كابد كثيرًا ليبدو متماسكًا. تقدم خطوة واحدة. الطيور على الشجر فتحت أجنحتها و الأخرى على الأرض هبت واقفة.

الضباع سارت أمامه يتبعها الذئاب و الخنازير. الثور على يمينه يطوح برأسه، و على يساره الثعبان يتموج بين الأعشاب بينما النمر يسير خلفه بخطوات رشيقة بطيئة جدًا حتى لا يثير مخاوفهم. و أتت من الغابة الخنازير الملحمية و الثعالب و الأفاعى وابن آوى و الدببة.

جرى «جوليان» و جرت الحيوانات خلفه. بدأ الثعبان ينفخ سمومه و الحيوانات تصيح. الخنزير البرى يفرك قدمه بمخالبه والذئاب تكشر عن أنيابها. القرود تناوشه بيديها. الدببة هبت واقفة على قائمتيها الخلفيتين فأطاحت بقبعته أما النمر أخرج سهمًا من جوفه.

بدا الموكب ساخرًا، كأنهم يرسمون خطة للانتقام. الكل يلهث حوله و هو يسير خافضًا ذراعيه مغلق العينين مثل الضرير. لا يستطيع فعل أى شىء و لا حتى الصراخ.

ثم سمع صياح الديك و تجاوبت معه ديوك أخرى. سطع النهار و من أشجار البرتقال أدرك أنه وصل إلى داره.

فى طرف أحد الحقول، على بعد ثلاث خطوات لمح الحجل الأحمر يطير فوق القش. خلع معطفه و ألقاه على الطيور مثل

الشبكة. ثم اكتشف اختفاء كل الطيور إلا طائر واحد فقط، و يبدو أنه ميت منذ فترة طويلة لأنه متعفن.

هذا الفشل أزعجه أكثر من كل الأحداث السابقة. عاودته الرغبة فى الصيد و القتل، و لعدم وجود حيوانات حوله الآن يرغب فى قتل البشر.

عبر الردهات الثلاثة و دفع الباب بقوة و تذكر زوجته العزيزة وهو على عتبه السلم فخفق قلبه بشدة. إنها تنام الآن بلا شك وسيذهب ليأخذها فى أحضانه. خلع حذاءه و تقدم برفق إلى حجرته.

النوافذ المطلية بالرصاص لا تسمح لضوء الفجر بدخول الحجرة. خلع ثيابه و لاحظ وجود الطعام فقال فى نفسه: من المؤكد كانت تأكل. تقدم إلى الفراش فى العتمة و لكى يقبل زوجته انحنى قليلاً و رأى رأسين متجاورين و ذُهل.

تراجع خطوة إلى الخلف متشككًا فى عقله. ثم عاد إلى الفراش يتفحص بأصابعه فتلمس شعر طويل جدًا. إنها زوجته. تفحص الرأس الأخرى و تلمس اللحية، رجل بالتأكيد.. رجل يضاجع زوجته.

اشتعل غضبًا و توجه إليهما بالخنجر و هو يصرخ مثل حيوان جريح. قتلهما بخفة قبل أن تصدر منهما أية حركة. سمع أنفاسهما تضعف حتى انتهت أنفاس أحدهما بينما الآخر مازال يتنفس. اقترب مذعورًا و سمع خوار الإيل الأسود الضخم.

استدار مذهولاً و لمح شبح زوجته على الباب حاملة المصباح. عندما رأت زوجته ذلك جحظت عيناها و سقط المصباح من يدها.

أدرك ما حدث. أمامه والداه ممددان مطعونان فى صدرهما. الألم المهيب على وجهيهما كأنما يحتفظان بالسر الأبدى. الدماء تسيل من أجسادهما البيضاء و جوارهما صورة المسيح مائلة.

انسابت أشعة الشمس و أظهرت بقع الدم الحمراء و بقية قطع الأثاث. اقترب «جوليان» من الفراش مذهولاً لا يستطيع تصديق ما حدث. مستحيل.. ما يحدث شىء غير مفهوم.. شىء غامض تمامًا. انحنى لرؤية العجوزين عن كثب و لمح الغضب المشتعل فى عينيهما. ثم استدار إلى الجهة الأخرى من الفراش و تأمل الشعر الأبيض الطويل. رفع رأسها و تأملها كثيرًا بينما الدماء تسيل من صدرها.

فى نهاية النهار وقف أمام زوجته يحدثها بنبرة غامضة تمامًا. فى البداية أمرها ألا تقاطعه و لا تلومه و ألا تنظر إليه. كما طلب منها أن تتبعه فى طريق اللعنات.

تمت الجنازة حسب التعليمات التى كتبها. ثم ترك قصره وحقوله و كل أملاكه دون أن يبدل ثيابه أو يرتدى حذاءه.

خضعت الزوجة لقدر الرب و راحت تصلى من أجله.

دفنوا الموتى بكل احترام فى كنيسة تبعد عن القصر بمسيرة ثلاثة أيام و كان هناك راهب يتبع الموكب و لم يجرؤ أحد على الحديث معه. أثناء القداس ظل واقفًا وسط البوابة مكتوف الأيدى راكعًا على الأرض. بعد الدفن اتجه إلى الجبل و هو يتلفت إلى الخلف من حين لآخر.

●●●

(٣)

ذهب يشحذ من كل الناس. يمد يده للفرسان فى الطرقات. يطلب البركة من الحاصدين أو يقف ساكنًا أمام أسوار المزارع. البؤس الشديد الواضح فى وجهه يجعل الناس تمنحه الصدقات.

لأنه يتحلى بالتواضع قص حكايته و بدأت الناس تهرب منه وهم يرسمون الصليب. عندما يعرفونه فى القرى التى يمر بها يغلقون الأبواب فى وجهه و يصرخون مهددين. يقذفونه بالحجارة. أكثرهم رحمة يضع له الزبدية فى النافذة ثم يغلقها بسرعة حتى لا يراه.

أصبح منبوذًا من الجميع، يتغذى على الجذور و النباتات البرية و الفاكهة العفنة و القواقع التى يبحث عنها فى المستنقعات.

فى بعض الأحيان، و هو يتجول على الشاطئ، يلمح أسقف المنازل، الجسور، الأبراج و الشوارع السوداء المتداخلة و يسمع الضجيج متواصلاً فى هذه المدن.

بدافع الحاجة إلى الآخرين يضطر إلى النزول إلى المدينة. لكن الهيئة الحيوانية للبشر، ضجيج العمال و الأقوال المتناقضة، كل هذا يصيب قلبه بالبرد. فى أيام الأعياد، عندما تبتهج الناس منذ الفجر بتزيين الكاتدرائيات، يتأملهم و هم يغادرون منازلهم

للرقص فى الميادين. يتأمل نافورات البيرة فى الميادين. يرقب الستائر الدمشقية فى ديار الأميرات. و عندما يهبط الظلام يلمح من النوافذ الموائد الفاخرة حيث يحتضن الأجداد أحفادهم. فى هذه اللحظات يجتاحه الحزن فيعود إلى الريف.

يتأمل المحبين، الدجاجات وسط الأعشاب، الطيور فى أعشاشها، الحشرات داخل الورود. يشعر أن كل هذا يحدث فى البعيد و يكمل تجواله بسرعة.

يبحث عن الوحدة لكن الرياح تأتى بحشرجات الموت إلى أذنيه. قطرات الندى المتساقطة من الورود تذكره بقطرات أخرى ثقيلة جدًا. أثناء النهار و الليل يرى الدماء وسط السحب. فى كل ليلة يحلم بقتل والديه.

أصبح مثل الزهاد. عندما يلمح أى دير فوق هضبة يصعد إليه على ركبتيه. لكن الأفكار القاسية تطفئ وهج نفسه فيتعذب ويختنق بذنوبه.

لم يثر أبدًا ضد إرادة الرب التى تسببت فى كل ذلك. و مع ذلك ييأس تمامًا من غفرانه.

يفزع من نفسه. يريد التخلص من ذاته فيندفع إلى المغامرات. أنقذ المشلولين من الحوادث. أنقذ الأطفال من عمق المياه. يندفع إلى الهاوية و النيران بداخله. آلامه لا تهدأ أبدًا مع مرور الأيام، بل تنمو و تكبر حتى أصبح يتمنى الموت.

فى ذات يوم مر جوار نبع و انحنى ليختبر عمق المياه فرأى وجه عجوز هزيل جدًا، له لحية بيضاء. كان مشهده مؤلمًا جدًا حتى أنه بكى من أجله و بكى الرجل الآخر. دون أن ينتبه إلى أنها صورته المنعكسة فى المياه تذكر أنه يعرف وجه مشابه لذلك فصرخ: إنه أبى. و منذ هذا اليوم ابتعدت فكرة الانتحار من ذهنه.

عبر الكثير من القرى و المدن حاملاً ذكرياته الثقيلة حتى وصل إلي نهر يصعب عبوره بسبب التيار الشديد. لم يجرؤ أحد على العبور من هنا منذ فترة طويلة جدًا.

لاحظ وجود زورق قديم مغروس بين الأعشاب تفحصة جيدًا ووجد مجدافين و بدأ يفكر فى خدمة الآخرين.

أقام درجات من السلم بالحجارة الثقيلة ليسمح للناس بالوصول إلى القناة. أرهقه هذا العمل كثيرًا لكن هذا أفضل لراحة و أمان الناس. ثم أصلح الزورق و أقام كوخ من الطين وفروع الأشجار.

عرف الناس الممر و أتوا إلى هنا ليعبروا. ينادونه من الشط الآخر عن طريق التلويح بالأعلام فيقفز إلى زورقه الذى كان متينًا ليتحمل كل الحقائب بالإضافة إلى الحيوانات التى تصيح مذعورة من المياه. لا يطلب أى مقابل لذلك. لكن بعض الناس يمنحه العلف أو بعض الملابس القديمة جدًا. يأخذ هذه الأشياء و هو يشعر بالألم و يطلب من الناس أن تباركه.

منضدة صغيرة، سلم نقال، فراش من فروع الأشجار الميتة وثلاثة أوانى من الفخار. هذا هو كل كوخه. يوجد ثقبين فى الجدران كأنهما نوافذ. من ناحية تمتد السهول الشاحبة إلى ما لانهاية و من ناحية أخرى النهر الواسع الأخضر ينساب أمامه. فى الربيع تطلق الأرض الرطبة رائحة عفنة ثم تأتى الرياح لتطيح بالأتربة فى شكل دوامات. تضطرب المياه فى النهر. و بعد ذلك تأتى سحابة ضخمة من الذباب و الناموس تقرص و تلدغ طوال الليل و النهار. ثم تهب الرياح الباردة تجمد كل شىء و يصبح لدى الإنسان رغبة مجنونة فى تناول اللحوم.

تمر شهور طويلة دون أن يلتقى أحد. يغلق عينيه و تهب ذكريات الشباب. فناء القصر المحاط بالأشجار، صالة الأسلحة، تحت تعريشة العنب يرى مراهق أشقر بين عجوز يرتدى الفراء وسيدة بطرحة كبيرة. و فجأة تطفو على الذاكرة صورة الجثتين. يخفى رأسه فى الفراش و يبكي و هو يقول:

- أبى المسكين!.. أمى المسكينة! .. أمى المسكينة.

ثم يسترخى تمامًا بينما يظل مشهد المقابر عالقًا فى ذهنه.

فى ذات يوم إعتقد أنه يسمع أحد يناديه. تنصت و لم يسمع إلا صوت انسياب المياه. لكن عاد الصوت ينادى:

- «جوليان».

الصوت يأتى من الشط الآخر و هذا يبدو غير معقول لأن النهر واسع جدًا. لكن عاد الصوت ينادى للمرة الثالثة:

- «جوليان».

فى هذه المرة كان الصوت واضحًا و مصحوبًا برنين أجراس الكنيسة.

أضاء مصباحه و خرج من كوخه. العاصفة شديدة فى العتمة. بعد تردد لبضع دقائق اتجه إلى المرسى و أصبحت المياه هادئة فجأة و لمح رجل ينتظره على الشط الآخر.

كان الرجل يرتدى ثيابًا بالية. وجهه كأنه من الجص و عيناه حمراوتان أكثر من الجمر. عندما قرب المصباح منه لاحظ أنه مصاب بالجذام و مع ذلك يبدو فى هيأته كأنه ملك.

عندما هبط الرجل إلى الزورق إرتج تحت وزنه الثقيل و بدأ «جوليان» فى التجديف. مع كل ضربة من المجداف ترتفع المياه وتدفعه إلى الأمام.

المياه أشد سوادًا من الحبر و تجرى بوحشية بين الشطين. المياه تصنع الحفر و ترتفع مثل الجبال و الزورق يقفز ثم يهبط متأرجحًا بالرياح.

اندفع «جوليان» يجدف بكل قوته وسط التيارات. البرد يجمد يديه، الأمطار تتساقط على ظهره، الرياح العنيفة تخنقه فتوقف.

انحـرف الـزورق. أدرك أن مـا يحـدث أمـر غيـر طبيعـى و لا يجـب الاعتـراض أبـدًا. أمسـك بالمجاديف فهـدأت العاصفـة.

المصبـاح يشـتعل أمامـه، الطيـور تحلق حولـه بينمـا المجـذوم يقـف ثابتًـا مثل تمثـال مـن الصخـر فـى مؤخـرة الـزورق.

استغرقت عملية العبور وقتًا طويلاً جدًا.

عندمـا وصـلا و فتـح «جوليـان» الكـوخ رآه يجلـس علـى السـلم النقـال. الملابـس الحقيـرة التـى تسـتره سـقطت و كشـفت أكتافـه، صـدره، ذراعيـه النحيلتـين و بـدت البثـرات الحقيـرة. التجاعيـد غائـرة فـى وجهـه. يبـدو مثل هيـكل عظمـى و لا يوجـد إلا ثقـب بـدل الأنـف. شـفتيه زرقاوتـين و أنفاسـه ثيقلـة مثـل الضبـاب، و كريهـة. قـال الغريـب:

- أنا جوعان.

قـدم لـه «جوليـان» مـا لديـه، قطعـة صغيـرة مـن لحـم الخنزيـر المقـدد و كسـرة خبـز أسـود. بعـد أن أكل أصبحـت البثـرات الحقيـرة العفنـة فـى المنضـدة و الأوانـى و السـكين. قـال الغريـب:

- أنا ظمآن.

أتـى «جوليـان» بالإنـاء الـذى كان بـه الميـاه، لكـن الميـاه تحولـت إلـى نبيـذ ذو رائحـة عذبـة. تنـاول المجـذوم كل مـا فـى الإنـاء ثـم قـال:

- أشعر بالبرد.

أشعل «جوليان» النيران وسط الكوخ.

شعر المجذوم بالدفء و انكمش داخل نفسه. ارتجفت كل أعضائه، اختفى وميض عينيه ثم غمغم:

- فراشك!

قاده «جوليان» إلى الفراش و أتى له بشراع الزورق ليغطيه.

تأوه المجذوم و بدت أسنانه، اجتاحته حشرجة الموت تهز كل كيانه. أغلق عينيه ثم قال:

- أشعر بالجليد فى عظامى. تعالي جانبى.

نام «جوليان» جواره و أدار المجذوم رأسه و قال:

- اخلع ثيابك حتى أتدفأ بحرارة جسدك.

خلع «جوليان» ثيابه حتى أصبح عاريًا تمامًا مثل يوم ميلاده وشعر ببرودة فى جسد المجذوم. حاول تشجيعه لكنه قال:

- سأموت!.. اقترب لتدفأنى. لا تقترب بجسدك! لا! بكل كيانك.

اقترب «جوليان» أكثر حتى أصبح الفم أمام الفم و الصدر أمام الصدر.

إلتمعت عينيى المجذوم مثل بريق النجوم. تمدد شعره مثل أشعة الشمس بينما أصبحت أنفاسه عطرة.

فى هذه اللحظة انسابت السكينة فى روح «جوليان» بينما المجذوم يكبر و يتضخم حتى أصبح يتلمس الجدران بيديه. طار السقف و صعد «جوليان» إلى السماء الزرقاء ليعيش مع المسيح.

هذه حكاية «جوليان» و هى قريبة الشبه من الأحداث التى نراها فى نافذة كنيسة بلدتى.

●●●

« هيروديا»

(١)

توجد قلعة «ماكريوس» شرق البحر الميت فوق جبل بازلتى قمعى الشكل. محاطة بأربعة وديان عميقة من كل الجهات. المنازل على سفوح الجبال دائرية الشكل حسب تقسيمات الأراضى. القرية تتصل بالقلعة بطريق متعرج بين الصخور.

ارتفاع جدران القلعة يصل إلى مائة و عشرين ذراعًا و بزوايا كثيرة حادة. المتاريس فوق الجدران كما تتناثر الثقوب مثل تيجان فوق الحجر. كل هذا يشرف على حافة الهاوية.

داخل القلعة يوجد قصر مزين بالأروقة و الأفنية وسط غابة من أشجار الجميز حيث نجد المدرجات و الملاعب.

يقف «أنتيباس» ملك «هيرود» يستطلع المكان. استطلع قمم الجبال الممتدة تحته لكن المناطق الوعرة السفلية مازالت غارقة فى الصمت. ثم تبدد الضباب و بدا شاطئ البحر الميت. الفجر مشوب بالحمرة خلف قلعة «مكاريوس» و بدت الرمال مضطربة فوق التلال ،الصحراء. كل الجبال اليهودية تبدو ضخمة رمادية. جبل «إنجادى» فى الوسط مثل سد أسود. جبل الخليل يستدير مثل القبة. فى جبل «إسكول» نجد ثكنات رماة القذائف. فى جبل «سورك» نجد أشجار الكروم و جبل «آزر» عبارة عن حقل من السمسم. أما برج «أنطونيا» الضخم يطل على مدينة القدس.

تلفت يستطلع المكان. عن يساره نخيل «أريحا». بدأ يفكر فى كل قرى الجليل، لو اتجه إلى هذه القرى لن يعود أبدا. مع ذلك نهر الأردن ينساب على السهل الجاف. ينساب ناصع البياض مثل بساط من الجليد. البحيرة تبدو الآن لازوردية. فى ناحية الجنوب حيث ضفة الأردن رأى ما يخشاه. خيام داكنة متناثرة، رجال يحملون الحراب يتجولون بين الأحصنة و النيران مازالت متلألئة مثل البركان.

إنها قبائل الممالك العربية التى ترفض الاعتراف بـ «هيروديا» التى كانت زوجة أخيه فى إيطاليا و أخذها عنوة و يطالب بحقها فى السلطة.

ينتظر النجدة من الرومان و من «فيتلوس» أسياد سوريا. تأخر وصول النجدة يقلقه.

بلا شك «أجريبا» يقلب عليه الإمبراطور بينما «فيليب»، أخيهم الثالث، سيد «باتانى» يتسلح سرًا. اليهود لا يرغبون فى عاداته الوثنية و الآخرون يترددون بين فكرتين: التفاهم مع العرب أو الإتفاق مع «بارث».

تحت زعم الاحتفال بعيد ميلاده دعا كل زعماء القبائل، كل سادة القرى و سادة الجليل بصفة خاصة.

تأمل كل الطرق بنظرات ثاقبة و لكنها مازالت خاوية. النسور تحلق فوق رأسه. الجنود تنام فى المتاريس جوار الجدران. لا يوجد أية حركة فى القصر.

فجأة أتى صوت من بعيد كأنه قادم من أعماق الأرض. شحب فى خوف. تنصت لكن الصوت اختفى. صفق بيديه و صرخ مناديًا:

- «مانى»! «مانى»!

ظهر رجل عارى فى نصفه الأعلى مثل المدلكين فى الحمامات، ضخم الجثة، عجوز وضيع، يربط حول فخذه سيف مقوس فى غمده. يمشط شعره إلى الخلف فتبدو جبهته عريضة. عيناه ناعستان لكن أسنانه تتلألأ. يتحرك بخطوات خفيفة، كل جسده يتمتع بالمرونة مثل القرد، لا يبالى بشىء مثل المومياء. سأل «أنتيباس»:

- أين أنت؟

أجاب «مانى» و هو يشير بإصبعه للخلف:

- هناك دائمًا.

- أعتقد أننى سمعته.

تنهد «أنتيباس» بعنف و راح يسأل عن «يوحنا»، و هو نفسه ما يطلق عليه اللاتينيون القديس «جان باتيست». و علم من «مانى» إنهم استقبلوا الشهر الماضى رجلين مبجلين بطريقة غير لائقة وطلبوا الحديث معه فى زنزانته. هل يعلمون ما هى جريمته؟

فسر «مانى»:

– تبادلوا معه الحديث بكلمات غامضة مثلما يفعل اللصوص فى الميادين و فى الطرقات ليلاً. بعد ذلك رحلوا إلى قرى الجليل العليا و هم يؤكدون أن لديهم أخبارًا جديدة.

خفض « أنتيباس» رأسه ثم قال بشراسة:

– راقبه! راقبه! و لا تسمح لأحد بالدخول إليه! اغلق كل الأبواب جيدًا! اخفى الحفرة! يجب ألا يشك أحد فى أنه حى!

نفذ «مانى» كل هذه الأوامر قبل أن يسمعها لأن «يوحنا» يهودى و هو يحتقر كل اليهود مثل كل السامريين.

لقد تهدم معبد «جريزيم» الذى أقامه «موسى» ليكون مركزًا لبنى إسرائيل.. منذ عهد الملك «هيكرا» و معبد القدس يثير غضبهم بشدة و دائمًا. أتى «مانى» مع بعض الرفاق ليدنس المعبد بعظام القتلى. تم القبض على رفاقه لأنهم أثقل فى الحركة و أقل مكرًا وقطعوا رءوسهم و بقى وحيدًا يسعى بكل جهده لتنفيذ الخطة.

لمح «مانى» شبحه فى الفرجة بين الجبلين. ضياء الشمس ينعكس على الرخام الأبيض و الألواح الذهبية على السقف. وراح يؤكد أنه مثل جبل ضخم، فوق طاقة البشر، يسحق الجميع بكبريائه.

كان يحدثه و هو يقف ثابتًا يرقبه، يطوح برأسه إلى الخلف و يحكم قبضة يديه. يطلق اللعنات معتقدًا أن للكلمات تأثيرًا قويًا. كان «أنتيباس» يستمع إليه و لا تبدو عليه الصدمة. أكمل السامرى:

– حتى الآن يمارس نشاطه. يريد الهرب. يأمل فى الخلاص. أحيانًا يكون هادئًا مثل حيوان مريض و أحيانًا نراه يمشى فى الظلمات و هو يردد: لا يهمنى هذا، لكى أكبر يجب أن أصغر.

راح «أنتيباس» و «مانى» يتبادلان النظرات لكن الملك كان غارقًا فى التفكير. الجبال حوله مثل بحر لا نهائى، الخلجان سوداء، السماء زرقاء صافية، للنهار بهاء ساحر و الحفر تتناثر فى المكان بينما الخراب ينتشر فى شعوب الصحراء التى تقلق إماراته. لقد شيد المدرجات و القصور فى كل مكان لكن الهواء ساخنًا يحمل رائحة المعاناة مثل المدن الملعونة و يرتع فى الشاطئ و تحت المياه. علامات الغضب المميت تثير مخاوفه.

وقف ثابتًا يسند ذراعيه على الدرابزين، واثقًا من سلطانه على المعبد. فى هذه اللحظة شعر باللمسة. استدار ليجد «هيروديا» أمامه.

كانت ترتدى ثوبًا خفيفًا بنفسجيًا. و لأنها قادمة من حجرتها مباشرة لا ترتدى العقد و لا الحلق. خصلة شعرها الأسود تتهدل

على ذراعها. اندفع يلقى نفسه فى أحضانها مزهوًا بنفسه فخورًا بأمجاده. ثم قالت بصوت قوى:

- القيصر يحبنا! «أجريبا» فى السجن!

- من قال لك ذلك؟

- أنا واثقة من ذلك.

ثم قالت :

- حدث هذا حسب رغبة «كايوس»!

يعيشان على فتات الإمبراطور و يطمعان فى السلطة كاملة. لكن يوجد مغامرات و مخاوف كثيرة فى الطريق إلى العرش. قالت:

- زنازين «تبار» تُفتح بسهولة. ليست آمنة أبدًا.

فهم مقصدها و تبدو محقة فى اهتمامها الشديد. لكن سقوط القتلى أمر طبيعى بسبب نكبة البيوت الملكية و هذا لا يهم.

أعلنت «هيروديا» المفاجأة: الزبائن يشترون الرسائل الخاصة الهامة من الجواسيس فى كل البوابات. و راحت تشرح له كيف نجحت فى إغواء «إيتيشى» المخبر ثم أكملت:

- اغواؤه لا يكلفنى شيئًا! لكن من أجلك فعلت الكثير! هجرت ابنتى.

بعد أن انفصلت عن زوجها تركت هذه الابنة فى روما و هى تأمل أن يكون لها ابنة أخرى من ملك اليهود. لكنها لم تتحدث أبدًا فى هذا الموضوع و هو يتساءل لماذا تغدق عليه بكل حنانها.

أتيا بالوسائد الفاخرة و جلسا يستطلعان المدرج. بكت «هيروديا» و هى تدير وجهها. قالت أنها لا تفكر فى ابنتها أبدًا الآن و أنها تتذكر همساته لها هناك، تتذكر مقابلاتهما جوار المشاعل وجولاتهما فى الطريق المقدس و سهراتهما فى القصور الكبيرة وهدير مياه النوافير تحت أقواس الزهور فى الريف الرومانى.

قالت ذلك ثم عانقته بحنان بالغ لكنه دفعها بعيدًا عنه. لا يفكر فى الحب الآن. الحرب مازالت مستعرة منذ اثنى عشر عامًا.

سهرت جواره تداعبه. سقط ثوبها و بدت أكتافها، تهدل شعرها على لحيته بينما ضوء الشمس ينساب بين الممرات ويسقط على وجهه الحزين أما وجه «هيروديا» تجعد و راح كل منهما يرقب الآخر بطريقة وحشية.

بدأت الناس تتحرك على الطرقات بين الجبال. الرعاة يغزون الأبقار، الأطفال تجر الحمر، العرسان يقودون الخيول. من يهبطون من القلعة اختفوا خلف القصر و الآخرون يصعدون الوادى الذى فى المواجهة، يصلون إلى المدينة، يفرغون حقائبهم فى الأفنية. إنهم يحملون الهدايا للملك و الحمالون يتبعون المدعوين.

فى آخر الفناء، من جهة اليسار ظهر رجل يسينى يرتدى ثوبًا أبيضًا، حافى القدمين، رواقى. و ظهر «مانى» فى الجهة اليسرى حاملاً سيفه. صرخت «هيروديا»:

- اقتله.

قال الملك:

- توقف.

توقف «مانى» و الرجل الآخر ثم تراجع كل منها عن طريق سلم مختلف و كل منهما يرقب الآخر بنظرات ثاقبة. قال «هيروديا».

- أعرفه. اسمه «فانوال». يبحث عن «يوحنا» و أنت حميته دون أن تعرف.

اعترض «أنتيباس» على رأيها، قد يستفيد منه فى يوم آخر. هجومه على القدس سيكسبه بقية اليهود.

قالت:

- لا! إنهم يخضعون لأى سيد و غير جديرين بالحفاظ على الوطن.

منذ «نيماس»، من يسعى لتحريك الشعب لا يجد أسلوب أفضل من الفتنة. حسب رأى الملك لا داعى للتعجل. «يوحنا» خطير. إذًا يجب أن نسخر منه . قالت له:

- اخرس.

أكملت فى إذلال أنها ذهبت ذات يوم تبحث عن البلسم ثم أكملت:

- كانت الناس تتجمع على شاطئ النهر. يخلعون ثيابهم. وكان هناك رجل يقف على التل يحدثهم. بشرته مثل الجمل ورأسه مثل الأسد. منذ أن لمحنى صب على لعنات كل الأنبياء. بريق الغضب فى عينيه، صوته نحاسى. رفع يده كأنه يريد إثارة الزوابع. كان من المستحيل الهرب لأن عجلات عربتى غرقت فى الوحل. ابتعدت ببطء و أنا أرتجف من تهديداته التى تنهال على مثل المطر.

«يوحنا» يمنعها من العيش هنا. عندما أتوا به مكبلاً فى القيود كان من المفروض أن يطعنه الجنود بالخناجر لو قاومهم، لكنه ظل ثابتًا هادئًا. وضعوا الثعابين فى محبسه لكن الثعابين ماتت.

ضعف كل هذه المكائد يثير غضب «هيروديا» لماذا يحاربها؟ ما هى مصلحته فى ذلك؟ حواراته، صرخاته فى الحشود تتردد فى كل مكان، تسمعها من كل اتجاه. تحذيراته تنتشر فى الهواء. تستطيع مواجهة الحشود بشجاعة لكن قوته أحد من السيف ولا نستطيع تهديده أبدًا. الأمر مذهل. راحت تتجول فى الفناء مضطربة غاضبة عاجزة عن الإفصاح عن مخاوفها.

تخشى أن يخضع الملك للرأى العام و يطردها. ستفقد كل شىء. تحلم بإمبراطورية كبيرة منذ طفولتها و لهذا تخلصت من زوجها الأول و اتبعت هذا الرجل الذى تعتقد أنه يهيم بها. قالت:

– كنت أعتقد أننى فى حماية شديدة بدخولى فى أسرتك.

قال الملك ببساطة:

– أسرتى تحميكى بالفعل.

شعرت بدماء أسلافها المقدسين تغلى فى عروقها فقالت:

– لكن جدك دمر معبد «عسقلان». الآخرون كانوا رعاة، قطاع طرق، سائقى عربات، مجرد روافد من اليهود منذ الملك «داوود». كل أجدادى هزموا أجدادك. أول أمراء «ماكابى» طردوكم من الخليل.

أعلنت أنها من الشرفاء و تحتقر العامة، إنها كراهية «يعقوب» لـ «أدوم». بدأ يشعر بما فى صدرها. أفصحت عن اعتزازها بأصلها وتتكبر على الشعب الذى يكرهها. أكملت:

– أنت مثله، يجب أن تعترف بذلك! تندم على فقدان الفتاة العربية التى ترقص حول الحجارة. خذها! اذهب لتعيش معها فى خيمتها! التهم خبزها الحقير و اشرب حليب خروفها. قبل شفتيها الزرقاوتين و انسانى.

كان «أنتيباس» لا يسمع شيئًا. ينظر إلى سطح منزل حيث تعيش فتاة صغيرة مع سيدة عجوز تتعكز على شمسية حقيرة طويلة مثل عصا الصيادين. فى وسط الخيمة نجد سلة السفر مفتوحة. لديها أحزمة، طرحات و قوارير عطر. الفتاة الصغيرة تأخذ هذه الأشياء و تضعها فى الهواء. كانت ترتدى مثل الرومان ثوب مجعد مزين بالزمرد و تغطى رأسها بطرحة زرقاء ثقيلة لأنها تسقط على ذراعها من حين لآخر. ظل الشمسية يتراقص فوقها فلا يسمح إلا برؤية نصفها فقط. لمح «أنتيباس» عنقها مرتين أو ثلاثة، لمح عينيها و طرف فمها. تخيلها و هى عارية تمامًا أمامه و تخيل جسدها البعض. فُتن بها و برقت عيناه بوميض خاطف و لاحظت «هيروديا» ذلك. سألها فى مكر:

– من تقصدين؟

قالت أنها لا تقصد شيئًا و عادت إلى هدوئها.

كان أهل الجليل، سادة الكتابة، و قادة الرعاة و مدير الملح ويهودى من «بابليون» هم قادة جيشه. جميعهم ينتظر على بوابة الرواق . ما أن رأوه حتى ألقوا بالتحية ثم اختفى فى الحجرات الداخلية.

ظهر «فانوال» فى زواية الممر. سأل «أنتيباس»:

– آه! مرة أخرى؟ بالتأكيد آتيت من أجل «يوحنا».

– و من أجلك أنت أيضًا. لدى أخبار هامة.

ثم دخل خلفه فى حجرة معتمة.

أصبح الضوء رماديًا بطول الساحل. الجدران فى لون العقيق تكاد تكون سوداء. فى آخر الحجرة نجد فراش من خشب الأبنوس عليه جلد بقرة و فوقه مصباح يتلألأ مثل الشمس.

عبر «أنتيباس» الحجرة و استلقى على الفراش. وقف «فانوال» يرفع يديه يتحدث بلهجة الملهم:

– الرب يبعث من حين لآخر أحد أبنائه. «يوحنا» أحدهم. لو ظلمته ستنال العقاب الشديد.

صرخ «أنتيباس»:

– إنه هو من يضطهدنى. يطالبنى بالمستحيل. إنه يحطمنى. يرسل الرجال من «ماكريوس» ليثير غضب ممالكى ضدى. يهاجمنى و أنا أدافع عن نفسى.

شرح «فانوال»:

– غضبه شديد و فى جميع الأحوال يجب اطلاق سراحه.

قال «أنتيباس»:

– لا نطلق الأبقار الوحشية بين الناس.

أجاب «فانوال»:

– لا تقلق! سيذهب إلى العرب، إلى بلاد الغال. يجب أن يبلغ رسالته للجميع.

شرد «أنتيباس» و قال:

– قوته كبيرة!.. أحبه رغم أنفى!

– إذًا يجب اطلاق سراحه.

هز «أنتيباس» رأسه. يخشى «هيروديا»، «مانى»، و المجهول.

حاول «فانوال» أن يحثه على اطلاق سراح «يوحنا». هذا سيضمن نجاح مشاريعه. الإثينيون يخضعون للملوك. هناك يحترمون هؤلاء الرجال الفقراء لأنهم لا يُقهرون بالتعذيب. يرتدون ثياب من الصوف و يقرأون المستقبل فى النجوم.

فجأة تذكر «أنتيباس» شيئًا مهمًا فقال:

– ماهو الشىء المهم الذى أتيت به؟

– أتى بربرى مغبر. يلهث مثل الكلاب و من المؤكد أنه «فيتليوس»!

– كيف؟ وصل؟

– رأيته منذ ثلاث ساعات. إنه هنا.

ارتجت الأبواب. دب الهرج و المرج فى القصر. دقت الأجراس من أعلى الأبراج لتحذير العبيد المتناثرين.

●●●

(٢)

تجمعت الحشود فى المتاريس عندما دخل «فيتيلوس» إلى الفناء. كان يستند إلى ذراع مترجمه فوق حمالة ضخمة حمراء مزينة بالرياش و المرايا. يرتدى الثوب الرومانى و الصيدرية وحذاءً أنيقًا بينما حامل الفأس يتقدم الحمالة بفخر. غرسوا فى البوابة العصى و الفئوس و ارتجف الجميع أمام عظمة الشعب الرومانى.

توقفت الحمالة التى يرفعها ثمانية رجال أشداء و خرج منها مراهق له بطن كبير و وجه برئ و مجوهرات تزين كل أصابعه. قدموا له قدحًا من النبيذ. شربه و طلب الثانى.

ركع الملك على ركبتيه أمام الحاكم الرومانى و قال أنه حزين جدًا لأنه لم يعلم بموعد قدومه. لو علم لأمر بإقامة الإجراءات اللازمة فى الطريق لحسن استقباله. إنه ينحدر من سلالة الآلهة. يوجد طريق فى البحر يحمل اسم أسرته. معظم أفراد أسرته من النبلاء و الحكام، حتى «ليسيوس» مضيفه يجب شكره لأنه هزم «كليت»، كما أنه والد الصغير «أوتلوس» الذى يبدو أنه أتى إلى الشرق لأنه موطن الآلهة.

تحدث إليه باللاتينية و سعد «فيتيلوس» كثيرًا بذلك و أجابه أن أجداده هم من صنعوا أمجاد الوطن. الأثينيون منحوه الإشراف على الألعاب الأوليمبية، كما أنه شيد المعابد لتمجيد «أوغسطس». كما أنه وطنى و عبقرى و قوى و مخلص دائمًا للقياصرة.

من بين البوابات النحاسية لمح «هيروديا» تتقدم بخطوات ملكية وسط النساء بينما الخصيان يحملون الصوانى القرمزية و البخور.

تقدم إليها ثلاث خطوات لاستقبالها و ألقى عليها التحية بانحناأة خفيفة. فقالت:

- من الجميل حبس «أجريبا» عدو «تيبار» لأنه يسبب لنا مشاكل كثيرة.

كان يجهل ما حدث. و لأن «أنتيباس» أقسم أنه على استعداد لفعل أى شىء من أجل الإمبراطور سأل «فيتيلوس»:

- حتي لو أدى ذلك إلي الإضرار بالآخرين؟

كان لدى «فيتيلوس» رهائن من ملك «بارث» و الإمبراطور لا يعلم شيئًا عن ذلك. لكن «أنتيباس» أخبر الإمبراطور بكل التفاصيل لأنه كان حاضرًا فى الاجتماع. و لهذا تأخر وصول النجدة.

تلعثم «أنتيباس» لكن «أوليس» قال ضاحكًا:

- لا تقلق، سأحميك!

افتعل الحاكم الرومانى كأنه لا يسمع شيئًا. ثروة الآباء تتوقف على نجاسة الأبناء. الأحداث الأخيرة تجلب له البركات من كل المحيطين به.

دبت الضجة على الباب. يُدخلون الأسرى. طابور من البغال البيضاء فوقها أشخاص يرتدون زى الكهانة. إنهم من السادوميين والفرزيين و لهم نفس طموحات و أطماع «ماكريوس». السادوميون يرغبون فى الحصول على الكهانة و الفزريون يريدون الاحتفاظ بها. وجوههم داكنة و الفرزيون بصفة خاصة لأنهم أعداء ملك اليهود. جمعوهم فى مكان ضيق و التيجان تتلألأ فوق رءوسهم.

فى نفس اللحظة وصل جنود المقدمة. يضعون دروعهم فى الحقائب للحفاظ عليها من الأتربة و خلفهم «مارسليوس» المرافق للحكام الرومانى بصحبة جباة الضرائب و تحت إبطهم الألواح الخشبية.

راح «أنتيباس» يقدم السادة المحيطين به:

«تولماس»، «كاثيريا»، «سهون»، «أمونيوس السكندرى» الذى يشترى له الأسفلت، «نعمان»، و «إياسيم» من بابليون. إلتفت «فيتيلوس» إلى «مانى» و سأل:

- من هذا؟

أشار ملك اليهود بما يعنى أنه الجلاد. ثم قدم له الصدوقيين. «جوناثاس» باحث حر و يتحدث الإغريقية، يطلب زيارة القدس وسيعود بالطبع. ثم قدم «أليعازر» ذو الأنف المقوس و اللحية الطويلة، يطالب بالمعطف الطويل الأبيض الموجود فى برج «أنطونيا» للفرزيين من أجل السلطة العسكرية.

ثم قدم الجليليون «بونس بيلات». إنه مجنون يبحث عن ذهب «داوود» فى كهف بالقرب من سامراء. و فى سبيل ذلك قتل السكان.

بدأ الجميع فى الشكوى فى نفس اللحظة و كان «مانى» الأعلى صوتًا و أكد «فيتيلوس» أنه سيعاقب المذنبين.

علت صيحات الجنود على البوابة و هم يحملون تمثال القيصر. هذه وثنية فى نظر اليهود. خطب فيهم «أنتيباس» لتهدئة روعهم بينما دُهش «فيتيلوس» الذى يجلس علي مقعد وثير من هذه المخاوف. شعر أن «تيبار» كان محقًا فى نفى أربعمائة منهم إلى «سردينيا». لكن هنا الموقف يختلف. إنه فى عقر دارهم ولذلك أمر الجنود بخلع الدروع.

التفوا حول الحاكم الرومانى يطالبون بالعدالة و الامتيازات والصداقات. ملابسهم ممزقة و يتدافعون. لكى نعيد الهدوء إلى

المكان انهالوا عليهم ضربًا من اليمين و اليسار. القريبين من البوابة هبطوا إلى الممرات و الآخرين صعدوا. تخبط الجميع.

سأل «فيتيلوس» عن سر اجتماع كل هؤلاء الناس فأخبره «أنتيباس» إنه الاحتفال بعيد ميلاده، و أشار إلى الجماهير المخفية فى المتاريس. لقد أتوا حاملين كميات كبيرة من اللحوم و الفاكهة والخضروات و الجديان و طائر اللقلق بالإضافة إلى أسماك كبيرة لازوردية اللون، و العنب و البطيخ و الرمان. جرى «أوليوس» إلى المطابخ المكدسة بطعام يكفى العالم كله.

أثناء المرور على القبو لاحظوا وجود أوانى تشبه الدروع وعندما رأى «فيتليوس» ذلك طلب معاينة الحجرات التحت أرضية فى القلعة.

الحجرات منحوتة فى الصخور أسفل القبو و مدعمة بالعواميد على مسافات متساوية. الحجرة الأولى تحتوى الأسلحة القديمة لكن الثانية مكتظة بكل أنواع الحراب من كل المقاسات وبعضها صغير جدًا مثل الريشة. الثالثة تبدو مفروشة بحصيرة من القصب مرصوص جوار بعضه البعض. أما السيوف المعقوفة فى الحجرة الرابعة. فى وسط الحجرة الخامسة نجد الخوذات فى صفوف على شكل ثعبان أحمر. لا نجد في السادسة إلا الجعبات. فى السابعة لا نجد إلا دروع الساق، و لا نجد فى الثامنة إلا الشارات.

و فى الحجرات التالية نجد الشوكات، الكلاب، السلالم، الحبال، حتى صوارى المنجنيق، حتى أجراس ثدى الجمل العربى! و لأن الجبل يتسع من قاعدته تبدو التجاويف كأنها خلية نحل. و يوجد تحت ذلك حجرات كثيرة أعمق.

استمر «فيتليوس» و مترجمه «فينى» و «سيسنا» قائد جامعى الضرائب فى متابعة هذه الحجرات تحت أضواء المشاعل التى يحملها ثلاثة خصيان.

نلمح فى العتمة أشياء بشعة تعود إلى البربر مثل جمجمة مغروس بها المسامير، رمح مسموم، كماشة تشبه فك التمساح. أخيرًا نكتشف أن ملك اليهود يمتلك ذخيرة تكفى لأربعة آلاف محارب. يخفى كل ذلك عن أعدائه لكن الحاكم الرومانى أصبح يعتقد أن الملك يستعد لمحاربة الرومان و طلب تفسيرًا لوجود كل هذه المعدات.

من المستحيل أن تكون كل هذه المعدات لمحاربة قاطعى الطرق، و لا لمحاربة العرب. و من المستحيل أن تكون ميراثًا عن والده. بدأ ملك اليهود يسير بخطوات سريعة أمام الحاكم الرومانى و هو يحاول أن يخفى أشياء كثيرة بثوبه الفضفاض. لكن كان هناك باب أعلى من قامته و لاحظه «فيتليوس» و طلب معرفة ما داخله. فقال الملك:

- لا يستطيع فتح هذا الباب إلا البابليوني!

- استدعه. سأنتظره.

كان والد البابليونى قد أتى من شاطئ الفرات بصحبة خمسمائة عبد و وهب نفسه للملك «هيرود» للدفاع عن الحصون الشرقية. بعد تقسيم المملكة بقى «إياسيم» عند «فيلب» و الآن يخدم «أنتيباس».

أتى البابليونى يحمل قوسًا على كتفه و كرباجًا فى يده وحبالاً كثيرة ملونة حول ساقيه. عضلاته المفتولة واضحة من قميصه الذى بلا أكمام. يغطى شعر رأسه بقبعة من الفرو و تتهدل لحيته فى شكل حلقات.

فى البداية بدا أنه لا يفهم المترجم لكن «فيتليوس» ألقى نظرة إلى «أنتيباس» الذى كرر الأمر. وضع «إياسيم» يديه على الباب فانزلق داخل الجدران.

هب الهواء ساخنًا من العتمة. دروب دائرية هابطة حتى عتبة هاوية أعمق من السابقة.

ظهر لهم رواق فى عمق الهاوية لتحصين القلعة من هذه الجهة. شجيرة صريمة الجدى تتسلق القشرة الأرضية و تتساقط أزهارها فوق سطح الأرض بينما هناك خط من المياه ينساب من أعلى.

يوجد هنا مئات من الأحصنة البيضاء تلتهم الشعير من إناء فى مستوى رأسها. كلهم يتميزون بالشعر المدهون بالأزرق و السنابك غير مكتملة، شعور رءوسهم كثيفة مثل الببغاوات. ذيولهم طويلة تصل إلى العرقوب. وقف الحاكم الرومانى يرمقهم فى إعجاب.

إنها حيوانات جميلة، ناعمة مثل الثعابين، خفيفة مثل الطيور، تتحرك بخفة السهام، تصارع الرجال و تعضهم، تجر الكتل الحجرية و تقفز فوق الفوهات و ترتع فى الوادى بقية النهار ثم تتوقف ثابتة بإشارة واحدة. منذ أن دخل «إياسيم» أتت الخيول إليه مثلما تفعل الخراف مع الراعى، ثم دفعت رءوسها تتأمل الحاضرين بعيونها البريئة فى قلق. حسب العادة تطلق صيحات خشنة تسعدهم لكنهم يرغبون فى الجرى.

لقد حبسهم «أنتيباس» فى هذا المكان المخصص للحيوانات خوفًا من أن يستأثر بهم «فيتيليوس» الذى قال ساخرًا:

– الخوذى سىء جدًا و أنت تغامر بضياعهم هكذا. قم بعملية الجرد يا «سيسنا»!

سحب جابى الضرائب لوح من حزامه و راح يعد الأحصنة ويكتب أوصافهم. حاول رجال جامعى الضرائب إرباك عملية الجرد ليتمكنوا من نهب الممالك بعد ذلك لكن «سيسنا» كان يرقب كل شىء بدقة.

أخيرًا صعدوا إلي الفناء.

كانت حواجز من البرونز تتناثر وسط الطرقات فى عدة أماكن. هذا يكشف عن وجود المتاريس.

لاحظ «فيتيليوس» إحداها أكبر من الأخريات و لا يوجد تحتها جنود. ضرب المتاريس بعنف و قال مبتهجًا:

- عثرت عليه! عثرت عليه! هنا يوجد كنز «هيرود».

كان الرومان مهووسين بالبحث عن هذه الكنوز. أقسم ملك اليهود على أن الكنز ليس هنا.

- ماذا يوجد فى الأسفل؟

- لا شىء! رجل سجين.

قال «فيتيليوس»:

- أريد أن أراه.

رفض ملك اليهود. رجاله يعلمون السر. هذه المخاوف جعلت الحاكم الرومانى يصرخ:

- احفروا هنا.

«مانى» خمن ما يشغل الملك. يعتقد أنهم سيحررون «يوحنا». أوقف العامل قبل أن يضرب بفأسه. أتى بالكلاب الضخمة

لمعاونته ثم شمر ساعديه و فتح غطاء الحفرة بسهولة. دُهش الجميع من قوة هذا العجوز. تحت الغطاء عثروا على لوح خشبى ضخم بنفس الحجم. بضربة يده انقسم اللوح و رأوا حفرة واسعة بداخلها سلم وبدون أى انحدار. من انحنى لاستكشاف الحفرة رأى أشياء مهولة.

كائن بشرى يستلقى علي الأرض تحت غطاء كثيف من جلد الحيوانات، هب واقفًا، و يختفى فى عمق عرينه من حين لآخر.

سطعت الشمس على الخوذات و السيوف، بعثت الدفء فى الألواح و العواميد. تجمع الناس فى الفناء. فى هذه اللحظة وقف «مانى» أمام الملك الذى يجاور «فيتيليوس». البابليون، الكهنة والجنود يشكلون حلقات فى الخلف ينتابهم القلق مما سيحدث.

فى البداية سمعوا الأنفاس عالية جدًا من داخل الفوهة. حتى «هيروديا» التى كانت تجلس فى القصر سمعت الأنفاس. ارتجفت وجرت وسط الحشود تتنصت و هى تضع يدها على كتف «مانى». ارتفع الصوت:

– يا لكم من بؤساء، الفرزيون و السادوميون، أولاد أفاعى، مغرورون، زانيون.

أدرك الرومان أنه «يوحنا». كان اسمه يتردد فى كل مكان. أكمل «يوحنا»:

- الويل لك أيها الشعب و الويل لخائنى «يهوذا». اللعنة لسكارى «إيفرايم» و لساكرى الوادى الزيتي المترنحين ببخار النبيذ.

إنهم ينسابون مثل المياه، مثل السبائك المنصهرة فى الأسواق، مثل الثكلى التى لا ترى الشمس.

يجب نفيك وسط أشجار السرو مثل الجوارح. فى الكهوف مثل اليربوع. ستتحطم أبواب القلاع بسرعة مثلما تتحطم نواة البندق. الجدران ستنهار، المدن ستُحرق، المصير الكارثى لن يتوقف. ستذوب أعضاء جسدك فى دمك مثلما تذوب الصبغة فى الصوف. سميزقونك و يوزعون أجزاء جسدك فوق الجبال.

عن أى قاهر تتحدث؟ عن «فيتيليوس»؟ الرومان فقط القادرين على الإبادة.

إرتفعت الصيحات: كفى.. كفى..

لكنه إستكمل بصوت أعلى:

- سيُسحب الأطفال على الرمال جوار جثث أمهاتهم. ستذهب أثناء الليل بحثًا عن الخبز وسط الخرائب، وسط السيوف. الكلاب ستنهش الجثث فى الميادين العامة بينما يتحاور السيدات العجائز. عذراوتك سيبكين و هن يلعبن على القيثارة فى احتفالات الأجانب وأكثر أولادك شجاعة سينحنى تحت العبء الثقيل.

سيعود الشعب إلى الشتات و ستعود كل كوارث الماضى. انها النبؤات القديمة.

و راح «يوحنا» يذكرهم بكل النبؤات القديمة الواحدة تلو الأخرى. ثم أصبح صوته هادئًا متناغمًا و هو يذكرهم بالخلاص، بنعيم السماء، بالمولود الجديد فى كهف التنين. الذهب بدلاً من الطين. الصحراء ستتفجر بالزهور. ثم استكمل:

– الغالى جدًا سيصبح رخيصًا جدًا. نافورات الحليب ستتفجر بين الصخور. سننام فى العراء متخمين بالشبع. متى تأتى يا من أترقبه؟ كل الشعوب تركع قبلك و حكمك سيستمر إلى الأبد يا ابن «داوود».

تراجع ملك اليهود خطوة إلى الخلف. وجود ابن «داوود» يخيفه و يهدده.

عاد «يوحنا» يهاجم الملك:

– لا يوجد إلا الملك الأبدى! هناك الجنات الجميلة.

مزق «انتيباس» ثيابه و ألقى به إلى الحفرة ليخرسه لكن صوته يجلجل:

– سأصبح مثل الدب، مثل حمار وحشى، مثل امرأه تلد! العقاب داخلك، الرب يبتليك بعقم البغال!

ارتفعت الضحكات مثل البحر الثائر.

عاند «فيتليوس» و أصر على البقاء. قام المترجم بترجمة كل تهديدات «يوحنا» له. ملك اليهود يلهث بينما «هيروديا» ترقب عمق الحفرة.

قلب الرجل المخيف الرءوس و حطم الحواجز و هو يقول:

– آه! أنت «ليزابيل»! استحوزتى على قلبه مع دقات حذائك. تتنكرين مثل الهاربين، تقيمين فراشك فوق الجبال لاستكمال طقوسك!

السيد سيمزق أذنيك، ثوبك الأرجوانى، طرحتك الحريرية، سيمزق ذراعيك، قدميك، سيحطم ذهبك و مرآتك الفضية، سيمزق معجبينك، قوامك المياس، سيحطم غرورك و يلهب شعرك وستضيع كل عذوبتك.

بحثت حولها عمن يدافع عنها. الفرزيون يخفضون عيونهم فى خجل. السادوميون يديرون رءوسهم و لا يرغبون فى غضب الرومانى . أما «أنتيباس» يبدو ميتًا.

ارتفعت صيحاته تتردد كالرعد فى كل مكان، صدى صوته يتردد فى الجبال، يزلزل كل «ماكريوس»:

– انتشرى فى التراب يا ابنة بابليون. اطحنى الدقيق! ارفعى حزامك، اخلعى حذاءك، اعبرى الأنهار، خزيك سينكشف. تنهيداتك ستسقط أسنانك! الأبدى سيسخر كل الخبثاء بجرائمك!

اللعنة! اللعنة! كلبة مسعورة.

أغلقوا فتحة الحفرة بإحكام شديد و كان «مانى» يتمني خنق «يوحنا».

اختفت «هيروديا». الفرزيون صُدموا، «أنتيباس» يقف وسطهم يبرر موقفه. قال «أليعازر»:

– بالتأكيد يستطيع الزواج من زوجة أخيه، لكن «هيروديا» ليست أرملة، و بالإضافة إلى ذلك لديها طفلة و هذا يؤكد الرجس.

اعترض «جوناثاس» الصدوقى. القانون يحكم هذه الزيجات ولا يحرمها أبدًا.

قال «أنتيباس»:

– خطأ! خطأ! هذا لا يتناسب مع موقفى لأن «أبسالون» ضاجع نساء أبيه. «يهوذا» ضاجع زوجة ابنه. «آمون» تزوج أخته. «لوط» تزوج بناته.

«أوليوس» الذى كان على وشك النوم ظهر فى هذه اللحظة. يتفق مع الملك فى هذه القضية. لايجب أن نخشى من هذه

التفاهات. أنه يسخر كثيرًا من الكهنة و من الخوف من «يوحنا». التفتت إليه «هيروديا» و قالت:

– أنت مخطيء سيدى! إنه يحث الشعب على الامتناع من دفع الضرائب.

سأل جامع الضرائب الرومانى بسرعة:

– هل هذا صحيح؟

أكد الجميع صحة هذا و دعمهم ملك اليهود بالطبع. خشى «فيتيليوس» من هروب السجين. يدرك جيدًا ضعف «أنتيباس» ولذلك أمر بالحراسة المشددة على كل البوابات و الأفنية. ثم ذهب إلى جناحه بصحبة وفد من الكهنة.

دون أن يسأل أى منهم راح كل واحد يشكو. أزعجوه كثيرًا ورفض كل الشكاوى.

غادر «جوناثاس» عندما لمح «أنتيباس» فى أحد المتاريس يتحدث مع رجل طويل الشعر يرتدى ثوب أبيض إسينى. و أسف أن الملك يحمى هذا الرجل.

كان ملك اليهود مشغولاً بفكرة هامة. لم يعد «يوحنا» تحت سطوته بل تحت سلطة الرومان. الأمر مربك. «فانوال» يتحرك بحرية فى كل المناطق المجاورة. استدعاه و طلب الجنود و قال لهم:

- إنهم الأقوى و لا أستطيع الفكاك منهم . ليس ذنبى.

أثناء راحة العبيد أصبح الفناء خاويًا. تحت الشمس الملتهبة فى لحظة الغروب يتلألأ كل شىء. لمح «أنتيباس» عمال الملح على الشاطئ الآخر من البحر الميت و لم ير خيام العرب. رحلوا بالتأكيد؟ بدا القمر و هبط الصمت.

بقى «فانوال» ساكنًا منحنيًا و لحيته تغطى صدره. فى النهاية أدرك ما يجب أن يقوله. يدرس السماء فى لحظة الفجر منذ بداية الشهر. كوكبة الغول توجد في الذروة. من نظام النجوم أدرك أنها تعنى موت شخصية هامة هذه الليلة فى «ماكريوس».

من هو؟ «فيتليوس» محاط بحماية شديدة. لم يعدموا «يوحنا». اعتقد الملك إنه هو نفسه الذى سيموت.

ربما يعود العرب. الحاكم الرومانى اكتشف علاقتهم مع أهل «بارث». قتلة القدس يرافقون الكهنة، يحتفظون بالخناجر بين ثنايا ملابسهم. ملك اليهود لا يشك أبدًا فى علم «فانوال».

جرى إلي حجرة «هيروديا» رغم أنه يكرهها. هى الوحيدة التى تشجعه بينما كل أعوانه واقعين فى الفتنة.

عندما دخل حجرتها اشتم رائحة القرفة، المسحوق، المراهم، اشتم رائحة السحب. تبدو أخف من الريشة و هى فى كامل زينتها.

لـم يخبرهـا بنبـؤة «فانـوال» و لا بخوفـه مـن اليهـود و العـرب. ستطالبه بإهمـال كل ذلـك. حدثهـا فقـط عـن الرومـان. «فيتيليـوس» لـم يفوضـه فـى أى مشـروع مدنـي. يعتبـره صديقًـا لـ «كايـوس» الـذى سـجن «أجريبـا». ربمـا سـيعزله أو يقتلـه.

حاولـت طمأنتـه ثـم سـحبت مـن علبـة ميداليـة غريبـة مزينـة بملامـح «تيبـار». هـذا يخيـف المسـئولين الرومـان و يبعـد عنـه الشـبهات. سـألها:

– من أين حصلتى عليها؟

فـى البوابـة المواجهـة بـدا ذراعًـا صغيـرًا جذابًـا، يتحـرك فـى الهـواء، و بـدا ثـوب يسـتند إلـى الدرابزيـن جـوار الجـدار. مـرت سـيدة عجـوز و كشـفت السـتار. دار رأس الملـك و سـأل:

– هل هذه إحدى جواريك؟

أجابت «هيروديا»:

– لا تهتم بذلك.

●●●

(٣)

إحتشدت قاعة الاحتفال بالمدعويين.

القاعة تتكون من ثلاث صحون تشبه صحون الكاتدرائيات، يفصل بينها عواميد خشبية ذات رءوس برونزية مزينة بالنقوش. ردهتان فى الهواء الطلق و الثالثة تتلألأ ببريق الذهب و فى آخرها شموع ضخمة تقود إلى الناحية الأخرى.

المشاعل فوق المناضد المصطفة تبدو مثل غابة من اللهب وسط الأكواب الفاخرة و الأطباق النحاسية و الكئوس التى فى لون السحاب و عناقيد العنب. لكن الضوء يخفت بالتدريج بسبب إرتفاع السقف. و هناك مشاعل أخرى ضخمة تتلألأ مثل النجوم وسط فروع الأشجار. من مدخل الخليج نلمح مشاعل ضخمة فوق أسطح المنازل لأن «أنتيباس» دعى أصدقائه و شعبه و كل الغرباء فى المدينة.

العبيد يتحركون بخفة و هم يرتدون شباشب من اللباد ويحملون الصوانى.

المنضدة الملكية من خشب الجميز و هى تحت المنصة الذهبية محاطة بسجاد من «بابليون» لتصبح خيمة فاخرة.

ثلاثة مقاعد فاخرة من العاج يجلس عليهم «فيتليوس» و ابنه و «أنتيباس». الحاكم الرومانى ناحية الشمال بالقرب من الباب و«أوليوس» فى جهة اليمين و بينهما ملك اليهود.

كان الملك يرتدى معطفًا أسودًا ثقيلاً فوق ملابس زاهية الألوان، يزين صدره و يطلق لحيته. يدهن شعره المرصع بالجواهر برائحة معطرة. «فيتليوس» يرتدى معطفه الأورجوانى فوق ثوبه الحريرى.

أما «أوليوس» كان يزين أكمام سترته بالفضة و يضع فوق رأسه قبعة تتكون من عدة طبقات، يرتدى عقد من الياقوت الأزرق يتلألأ فوق صدره. كان ناعمًا أملسًا مثل النساء. يجلس بالقرب منه طفل جميل جدًا يضم ذراعيه و يبتسم دائمًا. رآه فى المطبخ و احتفظ به لنفسه. و لأن اسمه صعب جدًا أطلق عليه اسم «الأسيوى». يتلفت من حين لآخر يرقب مرافقيه.

من هذه الناحية يوجد الكهنة و موظفي «أنتيباس» و سكان القدس و القرى الإغريقية الرئيسية. تحت الحاكم الرومانى نجد «مارسليوس» مع جامعى الضرائب و أصدقاء ملك اليهود وشخصيات هامة من المدن الكبيرة و خلفهم نجد سكان لبنان وجنود الملك «هيرود» العجائز و سكان «تراقيا» و الغال و اثنان من الجرمان و صيادى الغزلان و رماة من «إيدومى» و سلطان «باليرا» وبحارة من «زنجبار». أمام كل واحد منهم فطيرة كبيرة دسمة.

لكى ينظفوا أصابعهم و أذرعهم يهجمون مثل النسور على الزيتون والفسدق و اللوز. الجميع يبتهج و يرتدى أكاليل من الزهور.

الفرزيون يرفضون همجية الرومان. يرتجفون عندما نرش الصمغ الراتنجى و البخور لأن هذه الأشياء مخصصة للمعابد.

دلق «أوليوس» طبقه و وعده «أنتيباس» أن يقدم له ثلاث زجاجات من المرهم المعطر الذى أرسله الفلسطينيون إلى «كليوباترا».

أتى قبطان من حامية فى «تيبريا» و جلس خلف الملك ليخبره بأحداث هامة. لكن الملك مشغول بالاستماع إلى الحاكم الرومانى و ما يقال فى المناضد المجاورة.

كانوا يتحدثون عن «يوحنا» و من هم على شاكلته. «سيمون» يغسل الذنوب بالنار. مسيح حقيقى... صرخ الفرزيون:

- أكاذيب! المسيح يفعل المعجزات.

«أنتيباس» يرغب فى رؤيته فقال:

- هل من الممكن أن تصحبه إلى هنا. صفه لنا!

فقال الرجل أن «يعقوب» كان لديه فتاة مريضة. ذهب إلى «كفر نعوم» لمعالجتها على يده فقال له: عد إلى بيتك و ستجدها فى صحة جيدة. و عندما عاد وجدها على عتبة المنزل و بصحة جيدة بالفعل.

إحتج الفرزيون. يوجد طقوس و أعشاب خارقة. هنا فى «ماكريوس» نجد «الباراس» المحصنين. لكن المعالجة دون لمس، هذا مستحيل. المسيح لا يستعين بالشياطين.

كرر أصدقاء «أنتيباس» و زعماء الجليليون و هم يهزون رءوسهم:

- شياطين، لا طبعًا.

وقف « يعقوب» بين المناضد صامتًا في غرور. حثوه على الكلام فقال:

- يجب أن تتأكدوا من قدراته .

انكمش فى نفسه و قال بصوت منخفض كأنه يخاف من نفسه:

- أنتم لا تعلمون إذًا. إنه المسيح!

تلفت الكهنة حول أنفسهم. طالب «فيتليوس» بالترجمة وأجابه المترجم بعد فترة تردد.

إنهم يبحثون عن المحرر الذى يملكهم كل شىء و يجعلهم يحكمون كل الشعوب. البعض يرى أن هناك محرران أولهما انتصر على يأجوج و مأجوج و شياطين الشمال و الثانى سينتصر على الشر. و هم ينتظرونه كل دقيقة منذ قرون.

تشاور الكهنة فيما بينهم و أبدى «أليعازر» رأيه. فى البداية يجب أن نعلم أن المسيح سيكون من نسل «داوود» و ليس ابن نجار

وأنه سيطبق القانون و سيهاجمه الناصرى. سيكون قويًا جدًا ولن يأتى إلا بعد «إيليا».

قال «يعقوب»:

- و «إيليا» ظهر.

ردد كل من فى الردهات:

- «إيليا»! «إيليا»!

تخيل الجميع رجل عجوز تحت جناح غراب يصعقه و هو يلهب مذبح مخصص لعبادة الأوثان. بينما النساء فى المنصات يفكرن فى أرملة «ساربتا».

قال «يعقوب» أنه يعرفه! رآه بنفسه و الشعب أيضًا يعرفه!

- ما اسمه؟

صرخ بكل قوته:

- «يوحنا»!

ارتجف «أنتيباس» كأنه تلقى صدمة عنيفة فى صدره. السادوميون قفزوا فوق «يعقوب» بينما سعى «أليعازر» لتهدأتهم لسماع بقية الحكاية. و بعد أن دب الصمت رفع معطفه و بدأ فى السؤال مثل القضاة:

- طالما أن النبى مات...

قاطعته الجماهير بالغمغمات. إنهم يعتقدون فى اختفاء «إيليا» فقط . قاطع «أليعازر» الجميع و قال:

- هل تعتقد أنه سيبعث؟

- و لما لا؟

هز السادوميون أكتافهم. «جوناثاس» فرك عينيه و ضحك بكل قوته مثل المهرج. لا يوجد ما هو أحمق من مطالبة الجسد بالحياة الأبدية. و أكد ذلك للحاكم الرومانى.

كان «أوليوس» ينحنى فوق المنصة و العرق يتفصد منه بغزارة. قتم وجهه و هو يمسك بطنه.

فى اليوم التالى قام السادوميون بثورة كبيرة و أعاد لهم «أنتيباس» الكهانة بينما ظل «فيتليوس» هادئًا متماسكًا رغم مخاوفه من فقدان كل ثروته بينما ابنه «أوليوس» مازال يرغب فى استكمال طعامه و هو يقول:

- أريد أكل أى شىء، الرخام، الحجارة، مياه البحر. أى شىء. أريد الذهاب إلى الحمام.

كان يترنح بثيابه الفاخرة و طلب القرع العسلى. ذُهل الأسيوى من شراهة هذا الرجل الذى يتمتع بمنصب رفيع جدًا. لقد أكل شرائح لحم الثور، السناجب، البلبل و الفطائر فوق أعواد القصب.

راح الكهنة يتناقشون حول يوم القيامة. «أمونيوس» تلميذ «فيلون» الأفلاطونى يرى أنهم حمقى مثل الإغريق الذين يصدقون العرافين. «مارسليوس» و «يعقوب» يتفقان فى الرأى. الأول يحكى للثانى عن السعادة التى شعر بها فى معمودية «ميثرا» بينما «يعقوب» يدعوه للإيمان بالمسيح.

انسابت الخمور القادمة من كل مكان فى الممرات و راح الجميع يشرب. يتناقشون و هم يمزحون. «إياسين»، بالإضافة إلى أنه يهودى إلا أنه لا يخفى عبادة الكواكب. و كان هناك تاجر من عكا يعيش وسط البدو يسأل عن تكاليف الحج. و الآخر يتحدث عن أديانهم المحلية بينما الجرمانى، الضرير تقريبًا، ينشد أغنية إسكندنافية شهيرة تحكى عن ظهور الآلهة بوجهها البشع. أهل «سيشم» لا يأكلون اليمام على عكس سكان «أزيما».

كانوا يتناقشون و هم واقفين وسط الصالة. يمتزج لهاث أنفاسهم مع دخان المشاعل فيصبح الضباب كثيفًا. «فانوال» يتجول جوار الجدران. مازال يدرس السماء و مواقع النجوم. يخشى من بقع الزيت على ثياب الملك. هذا دليل نجاسة فى نظره.

دبت الطرقات على باب القصر. نعلم أن «يوحنا» مازال فى محبسه حتى الآن. بعض الرجال تسلقوا الممرات حاملين المشاعل ويصرخون من حين لآخر:

- «يوحنا»! «يوحنا»!

قال «جوناثاس»:

- إنه يقلق الجميع.

قال الفرزيون:

- ليس لديه أموال و مع ذلك يستكمل طريقه.

انهالت الاتهامات:

- احمونا!

- متى ننتهى من هذه المشكلة؟

- أنت هجرت الدين!

- إنه عاق مثل كل نسل «هيرود».

دافع «أنتيباس» عن نفسه قائلاً:

- لكنى أقل عقوقًا منكم. أبى من شيد معبدكم.

و راح الفرزيون و أبناء المنبوذين و أنصار «ماثياس» يواجهون الملك بجرائم أسرته.

كانوا يتمتعون بالرءوس المدببة و اللحية على شكل هلب، الأذرع ضعيفة، الأنف أفطس، عيونهم واسعة مستديرة. يبدون مثل الكلاب المسعورة. كان بينهم اثنا عشر كاتبًا و خادمًا للكهنة

شـديدى السـواد بسـبب البخـور، يندفعـون نحـو المنصـة و يهـددون «أنتيبـاس» بالسـكاكين بينمـا السـادوميون يدافعـون عنـه ببسـالة.

أشـار الملك إلـى «مانـى» بالذهـاب بينمـا «فيتليـوس» يعتقـد أن كل هـذه الأمـور لا تخصـه.

ارتجـف الفرزيـون فـى خـوف شـيطانى داخـل خيامهـم. لقـد قدمـوا لهـم لحـوم الحميـر البريـة. لحـوم نجسـة.

تهكم «أوليـوس» علـى رأس الحمـار التـى أمامـه و جـزع مـن لحمه النـتن. يفسـر ذلـك بـأن هـذه الحيوانـات قتلـت «باخـوس» و قـال أنـه يحـب النبيـذ كثيـرًا لأنـه رأى فـى المعابـد أشـجار الكـروم الذهبيـة.

لـم يفهـم الكهنـة حديثـه و لأن المترجـم مـن أصـل جليلـى رفـض الترجمـة. لذلـك ثـار «أوليـوس» حتـى ارتجـف الفتـى الأسـيوى واختفـى و أصبحـت الأطبـاق خاويـة أمامـه. لكـن عـاد إلـى هدوئـه عندمـا رأى ذيـول الخـراف السـورية السـمينة.

بـدت طبـاع اليهـود بشـعة فـى نظـر «فيتليـوس» يبـدو أن ربهـم الـذى شـاهد معابـده فـى الطريـق مـا هـو إلا مجـرد وثـن لحيـوان حقيـر. تذكـر التضحيـة بالأطفـال أمـام المذبـح تقربًـا إلـى الـرب. قلبـه اللاتينـى ضـاق بتشـددهم، ضـاق بغضهبهـم الوثنـى، غلظتهـم فـى التعامـل مـع الحيوانـات. يريـد أن ينصـرف الآن لكـن «أوليـوس» رفـض. يجـرى خلـف الطعـام فـى كل مـكان.

ارتفعت صيحات الجماهير. يرغبون فى الاستقلال. يتذكرون أمجاد بنى إسرائيل. لقد عاقبوا كل الطغاة مثل «أنتيجون»، «جراسوس»، «فاروس» و غيرهم ... و لأن الحاكم الرومانى سمع اللغة السريانية قال:

- اللعنة!

المترجم لا يقوم بعمله بأمانة. لا يترجم إلا كلمات قليلة ليسمح بالرد فقط. كشف «أنتيباس» ميدالية الإمبراطور و هو يرقب الاضطرابات حوله.

تلألأت أعمدة المنصة فجأة بالمشاعل. وسط العبيد و أكاليل الزهور ظهرت «هيروديا» متزينة بقبعة أشورية تتدلى فوق جبهتها. شعرها المتموج ينسدل تحت طرحتها القرمزية و فوق ثوب طويل جدًا. وقفت فوق المنصة التى أعلى «أنتيباس» تمسك بعصا وصرخت:

- المجد للقيصر!

ترددت الصيحة من «فيتليوس»، «أنتيباس» و كل الكهنة . لكن دبت صيحات الدهشة و الإعجاب على الباب.. دخلت فتاة صغيرة.

تختفى تحت طرحة زرقاء شفافة، نلمح سهام عينيها، جسدها فى لون العقيق الأبيض، تحت عنقها الذى يشبه عنق الحمامة تبدو أكتافها لوحة رائعة. ترتدى شبشب صغير من ريش الطيور.

خلعت طرحتها و هى فوق المنصة. إنها «هيروديا» فى شبابها. وبدأت الرقص.

مع أنغام الناى تقدمت بخطوات رشيقة مثل الأفعى. أكتافها البضة تنادى شخص ما يهرب منها دائمًا و هى تتبعه. أخف من الفراشة، مثل روح هائمة، روح شيطانية. تبدو كأنها على وشك الطيران.

سرت أنفاس الأفعى فى المكان. دب الأمل بعد الكآبة. ترقص بكل جوارحها حتى لا نعلم إن كانت تبكى تضرعًا للرب أم أنها تذوب فى عناق طويل. عيونها ناعسة، تتلوى، ترقص بطنها مثل موجات عاصفة، تهز نهديها بينما يظل وجهها ثابتًا و سيقانها لا تتوقف أبدًا.

دُهش «فيتليوس» ببراعتها فى التعبير بينما «أوليوس» يتقيأ. تاه الملك فى الحلم و أصبح لا يفكر فى «هيروديا» أبدًا. لمحها وسط السادوميون فأدار رأسه.

كانت «هيروديا» استدعت ابنتها «سالومى» من روما للايقاع بالملك فى شباك هواها. و أصبحت واثقة الآن من نجاح خطتها.

لقد استرخى بنشوة الحب. إنها ترقص مثل كاهنات الهند، مثل النوبيين، مثل عاهرات «ليديا». تتلوى فى جميع الجهات مثل زهرة وسط العاصفة. أذنيها تقفز، ظهرها يومض، ذراعيها، سيقانها، ملابسها الشفافة، كل شىء يتلألأ و يلهب أنفاس الرجال. الهارب يغنى و الحشود تتجاوب فى انبهار. تتلوى دون أن تنحنى. ثم تنحنى حتى يصل ذقنها إلى الأرض. البدو المعتادون على التقشف، جنود الرومان المعتادون على الخشونة، جباة الضرائب الشرهين، الكهنة العجائز، الكل يدس أنفه و يرتجف فى نشوة.

بعد ذلك دارت حول منضدة «أنتيباس». احتكت به مثل وتر ساحر. هتف لها:

- تعالى! تعالى!

تلف و تدور حول نفسها و الجماهير تصرخ فى ذهول و الملك يصرخ بصوت أعلى:

- تعالى! تعالى! سأمنحك كفر نعوم، سهول «تيبريا»، حصونى! نصف ثروتى .

انقلبت و سارت على يديها و سيقانها فى الأعلى. دارت حول المنصة و توقفت فجأة و هى تنحنى بزاوية تسعين درجة. أصبحت عارية تمامًا. شفتاها مكتنزتان، رموشها، عيناها رائعتان. قطرات العرق تنساب على وجهها مثل قطرات الندى على الرخام الأبيض.

لم تقل شيئًا. أشار لها لتصعد إلى المنصة. ارتبكت. ثم قالت بصوت طفولى برئ:

- لا أريد إلا أن تمنحنى فى طبق.. رأس..

نسيت الاسم ثم تذكرته فقالت و هى تبتسم:

- رأس «يوحنا».

انكمش الملك داخل نفسه. دُهش من هذه الكلمات و الشعب ينتظر. الموت الذى تنبأوا به من قبل سيعود إلى شخص آخر. ليس هو المقصود إذًا. لو كان «يوحنا» هو فعلاً «إيليا» سينجو و إن لم يكن كذلك فموته لا يعنى شيئًا.

كان «مانى» يقف جواره و يفهم كل ما يدور فى رأسه. طالبه «فيتليوس» بتنفيذ وعوده و إصدار الأمر إلى حراس السجن. الأمر بسيط و سينتهى فى دقيقة واحدة.

جرى «مانى» للتنفيذ. إنه المسئول عن عمل المشانق منذ أربعين عامًا. هو الذى أغرق «أريستول»، خنق «إسكندر»، أحرق «ماثياس»، اعتقل «زوسيم» «بابوس» «جوزيف» و «أنتيباتر». لكنه يخشى من قتل «يوحنا». أسنانه تصطك ببعضها و يرتجف.

لقد لاحظ أمام الحفرة الملاك السامرى الكبير مكسو بالعيون و يلوح بسيفه الأحمر الضخم. و كان هناك جنديان جواره و شاهدا ذلك.

عاد «مانى» مضطربًا يعلن عجزه. اجتاح الغضب «هيروديا» حتى حطمت درابزين المنصة و تماثيل الأسود. حاول «أنتيباس» تهدأتها لكن الكهنة و الجنود و الفرزيون، الكل يطالب بالانتقام والآخرين ساخطين لتأجيل بهجتهم.

خرج «مانى» و هو يخفى وجهه. شعر المدعوون أن الوقت يمر ببطء شديد أكثر من المرة الأولى. ضاقوا كثيرًا. دبت الضجة فى الممرات. الانتظار أصبح غير محتمل.

دخلت الرأس. «مانى» يقبض عليها من الشعر فخورًا بتصفيق الجماهير. وضعها فى الطبق و قدمها إلى «سالومى» التى صعدت إلى المنصة و بعد دقائق كثيرة أخذتها السيدة العجوز التى شاهدها «أنتيباس» فى حجرة «هيروديا» قبل ذلك.

توجه «مانى» بالرأس إلى قادة الرومان ثم التفت إلى من يتناولون الطعام هناك. كانوا يتفحصون الرأس بدقة.

الجرح من أعلى إلى أسفل. التشنجات واضحة فى أركان الفم. الدماء المتجلطة على اللحية، العيون مغلقة مثل القواقع. كل هذا يتلألأ تحت ضوء الشمعدانات.

وصلت الرأس إلى منضدة الكهنة. أحد الفرزيون ضربها بوحشية. أعادها «مانى» إلى الطبق و توجه بها إلى «أوليوس» الذى استعاد وعيه فجأة و هو يشعر بالعيون تُفتح كأنها ستتحدث إليه.

ثم قدمها إلى «أنتيباس» و سقطت الدموع من عينى ملك اليهود.

خمدت المشاعل و رحل المدعوون. لم يبق إلا «أنتيباس» يتأمل الرأس بينما «فانوال» يتمتم و يصلى.

مع بزوغ الشمس أتى رجلان كانا مرسلان من «يوحنا» ليجوبا البلاد. أفصحا لـ «فانوال» عن بهجتهما و قالا له:

- لا تنزعج. هبط إلى الموتى لمقابلة المسيح!

الآن فهم الإسينى قوله: لكى تكبر يجب أن تصغر.

حمل ثلاثتهم رأس «يوحنا» و اتجهوا إلى الجليل. و كانت ثقيلة جدًا لدرجة أنهم تناوبوا فى حملها.

تأليف: جوستاف فلوبير.

ترجمة: حسام أبو سعدة.

كتب للمترجم

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- كليوباترا.
- الطاعون.
- قرطاجنة.
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- حضارات أمريكا القديمة .
- الإسكندر.
- يوليوس قيصر.
- رسائل فلسفية.

- التسامح .
- مقدمة فى الفينومينولوجيا .
- قبل الإعدام.
- تفسير الأحلام .
- أكلة لحوم البشر.
- حكايات الصيد .
- رحلة إلى مركز الأرض.
- انتظار.
- ٣ حكايات.

●●●

الفهرس	الصفحة

قلب بسيط :..... ٥

أسطورة القديس «جوليان» :..... ٥١

«هيروديا» :..... ٨٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر